

مَوْلَانَا كَوْنُ الرَّوِّي

فِي كِتَابِهِ

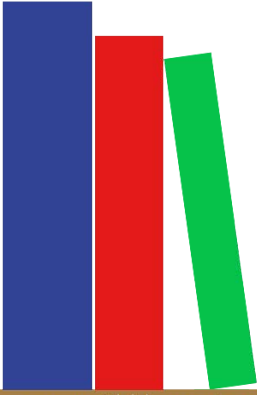
وَعَاظَنَا السَّيِّدَ الْأَطْيَبَ

الْحَسَنَ الْأَوَّلَ

نَالِيْفُ

السَّيِّدُ الْمُضَيُّ الْعَسْكَرِيُّ





مكتبة مؤمن قريش

لو وضع إيمان لي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه
(الإمام الصادق ع)

moamenquraish.blogspot.com

**مع الدكتور الوردى
فى كتابه
وعاظ السلاطين**

القسم الاول

تأليف

السيد مرتضى العسكري



دانشگاه اصول الدین
USUL AL DEEN COLLEGE

الكتاب : مع الدكتور الوردی فی کتابه و عاظ السلاطین - القسم الأول
المؤلف : السيد مرتضى العسكري
الطبعة : الرابعة / ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م
المطبعة : باقری - قم
الناشر : كلية أصول الدين
الكمية : ٣٠٠٠ نسخة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق الإنسان ، علّمه البيان ، وأكرمه بالعقل ليميز به الخبيث من الطيب ، وأنعم عليه بإرسال الأنبياء أدلاءً له على الطريق ليسلك سبيل الرشاد بحسن اختياره .

و الصلاة على نبينا محمد المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق ، و على آله (هداة الخلق) السلام ، و على أصحابه البررة التحية و الإكرام .

و بعد فقد نشرت نقدي على كتاب خوارق اللاشعور و وعّاظ السلاطين للدكتور علي حسين الوردى تباعاً بأعداد من جريدة أخبار المساء . و كان ذلك في شهر رمضان سنة ١٣٧٣ هـ ، فرغبت إليّ اخواني في حينه أن أطبعه في كراسة خاصة بدل نشرها في جريدة يصعب الاحتفاظ بأعدادها . فوعدت أن أقوم بذلك حينما تسنح لي فرصة القيام به . و أخيراً قد طلب مني بعض الاخوان أن أنجز و عدي فأعدت النظر فيها و قدمتها للطبع . و قد توخيت في نشرها بيان رأيي حول شبه الدكتور الوردى علّها ترفع بعض تلك الشبه بحول الله و قوّته ، و الله هو الموفق للصواب .

مرتضى العسكري

تمهيد

عندما صدر كتاب (خوارق اللاشعور) للدكتور علي حسين الوردى مدرس علم الاجتماع بكلية الآداب دعاني حب السلامة إلى التريث والإحجام عن القيام بنقده راجياً أن يكون ذلك لغيري ، فأبقى على كسب ، مشرفاً على المعركة ، و آمناً من أخطارها ، و ذلك لعلمي بأن بعض أنصاف المثقفين بل المثقفين أيضاً يجدون في كل جديد لذة ، ولا يرغبون في سماع نقد الرأي الجديد و تمحيصه ، فيهاجمون بشدة أي شخص لا يقبل الرأي الجديد على علاقته ، و يحاول نقده و تمحيصه .

و بعد صدور كتاب (وعظ السلاطين) الذي لم يكن إلا أشعة من (خوارق اللاشعور) ! رأيت أن أنشر رأبي حول الكتابين ، و أترك الحكم على ما أقرر من نقد الكتابين للقراء الكرام . و هنا بدأ ذلك بحول الله و قوته .



ليكن القارئ الكريم على علم أن النقاش لا يدور بيننا حول رأي المؤلف في تاريخ الإسلام ، أو في دين الإسلام و نبيه (ص) فحسب . و ليس النقاش حول الحجاب و السفور إلا عرضياً ، كما أن النقاش ليس حول سغب الفقير و بطر الثري - كما يحلو للمؤلف أن يرى ذلك - وإنما النقاش حول رأيين متقابلين في الفلسفة و علم الاجتماع و علم النفس ، بل قد يكون في كثير من الحقائق . و سترى أن الدكتور الوردى و أساتذته يحاولون هدم كل قديم من أخلاق و آداب و نظم إجتماعية ، في حين أنهم لا يستطيعون أن يبنوا جديداً ، كما سترى أن المؤلف لم

يأت برأي جديد وإِنما قد جاءنا برأي من القديم بعد أن ترجمه من آراء مَنْ آمن به من المتأخرين . ونحن مع احترامنا لآراء الدكتور وأساذته اللآتي نرى من واجبنا أن نناقشها بأسلوب علمي بحت . نؤاخذهُ على أسلوب نقده ، و تحامله على مخالفيه - على أننا قد اضطررنا أحياناً أن نسلك في مناقشة آرائه أسلوباً يقرب من أسلوبه في الدعابة - ثم نؤاخذهُ على اعتماده في بيان رأيه على إثارة العواطف ليصعب القيام بنقده على مَنْ يخالف رأيه ، فإنه قد جعل من نفسه في مقام بيان رأيه مدافعاً عن الفقير ، و محامياً عن طبقات الشعب الكادحة ضد غاصبيه .

أسلوب الدكتور الوردى و رأيه و مبدؤه

لكل كاتب أسلوب يمتاز به على غيره ، و ميزان يعتبره و يقيس الأمور به ، و لأكثر الكُتاب مبدأ يدعون إليه . و إنَّ دكتورنا الوردى يمتاز فيما كتب بقاعدة : خالف تُعرّف ، و الهزء بمن يزن الفكر بمنطق أرسطو ، و عدم الاعتراف بتأثير العقل في الإنسان ، و إِنما ميزان أعمال الإنسان عنده هي العاطفة و الهوى ، فالشهوة و الأثانية و الحسد هي التي تسيّر الإنسان و حدها و لا يغيّر الإنسان شيء غير ظروفه الإقتصادية ، و الحق عنده أمر إعتباريٌّ موهوم ، فالحق مع القاتل في محاولته القتل لأنَّ غريزة الغضب تدفعه إلى فعله ، و المقتول له الحق في فراره عن القتل بحكم غريزة حب الحياة ، كما أنَّ الهرّ له الحق حينما يهاجم الفأر و الفأر مع الحق عندما ينهزم منه ، و لبت شعري فيما لو اعتدى أحد عليه هل يبقى متمسكاً برأيه و يرى المعتدي محقاً في الاعتداء عليه؟! لأنَّ ظروفه الخاصّة دفعته إلى الاعتداء أم يجأر بالشكوى عليه!؟

و أما مبدؤه الذي يدعوا إليه فيصعب على القارىء تشخيصه ، أهو الإسلام؟ أم الديموقراطية؟ أم الشيوعية؟ أم ليست بهذه و لا تلك و إِنما هو مضطرب الفكر يتأرجح بين هذه المبادئ و غيرها! اللهم إلا أن يكون مبدؤه الدعوة إلى الثورة فقط!

و أما رأيه في الإسلام فإنه يرى : أن الإسلام كان في حينه ثورة موفقة ناجحة ولكن في إتباع القرآن والتقيّد به في هذا اليوم جمود كجمود القائلين (أنا وجدنا آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون) .

الدكتور الوردى في كتابه خوارق اللاشعور ووعاظ السلاطين

يظهر للقارىء الناقد أنّ مؤلف وعاظ السلاطين قد تأثر كثيراً بفصل (الكهانة) من كتاب (من هنا نبداً) لخالد محمد خالد المصري ، فالأستاذ خالد هناك يُعبّر عن رجال الدين بالكهنة وهو سابق على الوردى فيما كتبه عن الوعاظ ، غير أنّ الأستاذ خالد - رغم أنّا نخالفه في قسم من كتابه - أكثر اتزاناً من دكتورنا الوردى ، ويتّسم كتابه بوحدة الموضوع ، والدكتور كثير الخروج عن الموضوع ، وخاصة في كتابه خوارق اللاشعور ، فإنّه أقرب ما يكون إلى كتاب (الكلام يجرّ الكلام) لبعض العلماء المعاصرين . ثمّ أنّ الأستاذ خالد يدعوا إلى الإشتراكية بحرارة وإيمان ، ويسوق الأدلّة تأييداً لما يراه ، فلك أن تناقشه و تأخذ برأيه أو تخالفه ، وأمّا الوردى فإنّه إن أعوزه الدليل إعتد على السخرية و النكتة في البرهنة على رأيه .

رأى أستاذ علم الاجتماع فى الأخلاق

قال الدكتور الوردى فى كتابه وعاظ السلاطين : (لعلنا لا نخطئ إذا قلنا بأنّ الحسد و الشهوة و الأنانية و ما أشبهه هى صفات أصيلة فى الإنسان لا مفرّ منها^(١)) .

(فإذا قلنا للناس أنبذوا الحسد و الأنانية فمعنى ذلك أنّنا نقول لهم اتركوا

(١) وعاظ السلاطين ص ٢ .

طبيعتكم البشرية وكونوا ملائكة (١) .

فالواعظ حين يعظ الناس باتباع المثل العليا و تطهير نفوسهم من أدران الحسد و الأنانية إنما يطلب المستحيل كما أسلفنا (٢) .

(فالسوقي يرى نفسه مضطراً إلى الاندفاع وراء أنانيته لكي يعيش ، هذا بينما الواعظون يطاردونه في كل حين معارضين في وجهه أن الأنانية ذنب قبيح (٣) .

إذا مرّ على هذه السطور قارئ خالي الذهن من معنى الأنانية إندفع لا شعورياً إلى كره الواعظين الذين يسدون عليه سبيل العيش و يطلبون منه أن يكون ملكاً ، و أن يترك صفة أصيلة في الإنسان ، و قد يسأل القارئ نفسه عن الباعث للواعظين إلى هذه الحملة عليه ، فينبري الدكتور للجواب على هذا السؤال المُقدّر و يقول :

(و لا يذم هذه الصفات البشرية إلا أولئك الذين أنعم الله عليهم فأشبع شهواتهم و أنانيتهم و جعلهم موضع حسد لغيرهم فهم يحرضون غيرهم على نبذ الحسد و كأنهم يقصدون لا شعورياً أن يدرأوا عن أنفسهم خطر المنافسين و المنازعين (٤) .

و يرى الدكتور : أن قول الخطباء للناس : هذبوا أخلاقكم أيها الناس و نظّفوا قلوبكم (٥) ، (أسخف رأي و أخبثه من ناحية الإصلاح الإجتماعي (٦) . هذا ما قاله الدكتور و قد قال الله سبحانه و تعالى :

(١) وعاظ السلاطين ص ٨ .

(٢) المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٦ .

(٦) المصدر السابق ص ٦ .

« إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) » .

إِنَّ اللَّهَ فِي نَاحِيَةِ الْإِصْلَاحِ الْإِجْتِمَاعِيِّ قَدْ وَعِظَ كَمَا رَأَيْتَ وَأَمَرَ بِالْوَعِظِ فِي قَوْلِهِ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (٢) » .

وَيَمْدَحُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْلِيَاءَ بِقِيَامِهِمْ بِالْوَعِظِ فِي قَوْلِهِ :

« وَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣) » .

إِنَّ أَوْامِرَ اللَّهِ وَنَوَاهِيَهُ فِي نَاحِيَةِ الْإِصْلَاحِ الْإِجْتِمَاعِيِّ كَثِيرَةٌ تَرَبُّوْا عَلَى الْمَثَلَاتِ وَلَمْ أَقْصِدْ اسْتِقْصَاءَهَا الْآنَ ، وَلَمْ أَذْكَرْ مَا أوردت لِأَسْتَشْهَدَ بِهَا عَلَى صِحَّةِ الْقِيَامِ بِالْوَعِظِ ، وَإِنَّمَا أوردت ذَلِكَ لِيَبَيِّنَ عِذْرَ الْوَعَّاطِ ، فَإِنَّهُمْ بوعِظِهِمْ ينفذون حُكْمَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، الَّذِي قَدْ يَكُونُ أَهْمُ حُكْمٍ مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ ، لِأَنَّهُ يَشْكَلُ السُّلْطَةَ التَّنْفِيزِيَّةَ لِسَائِرِ الْأَحْكَامِ ، وَبِتَعْطِيلِهِ يَتَعَطَّلُ إِجْرَاءُ جَمِيعِ الْأَحْكَامِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَإِنِّي لَا أَخْتَلِفُ مَعَ الدُّكْتُورِ فِي رَأْيِهِ عَنِ الْوَعَّاطِ الَّذِي يَسْتَعْمِدُ مِنْ قَبْلِ الطَّغَاةِ - إِنْ صَحَّ ذَلِكَ - وَإِنَّمَا إِخْتِلَافِي مَعَهُ فِي أَنَّ الْإِرْشَادَ بِالْكَلَامِ هَلْ يُوَثِّرُ فِي تَوْجِيهِ الْبَشَرِ أَمْ لَا ؟ أَمَّا الدُّكْتُورُ فَإِنَّهُ يَقُولُ :

(لو بقينا مئات السنين نفعل كما فعل أجدادنا من قبل ، نصرخ بالناس ونهيب بهم أن يغيروا من طبائعهم لما وصلنا إلى نتيجة مجدية (٤)) .

وَيَقُولُ : لَقَدْ جَرَى مَفْكَرُونَا الْيَوْمَ عَلَى أَسْلُوبِ أَسْلَافِهِمُ الْقَدَمَاءِ لِأَفْرَقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ مَنْ تَتَّقَفُ مِنْهُمْ ثِقَافَةَ حَدِيثَةٍ أَوْ قَدِيمَةٍ ، كُلِّهِمْ تَقْرِيْبًا ، يَحَاوِلُونَ أَنْ يَغْيِرُوا

(١) النحل : ٩ .

(٢) الأعراف : ١٩٩ .

(٣) التوبة : ٧١ .

(٤) وَعَاطَ السُّلْطَانِ ص ٧ .

بالكلام طبيعة الإنسان (١).

أما نحن فنقول أن الوعظ بالكلام - الدعاية المؤثرة - توجد الرغبة والرغبة تولد الإرادة ولا شيء بعد الإرادة إلا العزم ثم العمل، غير أن الكلام إذا لم ينبعث من قلب مؤمن به معززاً بشواهد عملية من إيمان القائل به لا يجدي نفعاً، وكلما قوي إيمان الواعظ برأيه إزداد تأثيره في غيره، وكلما قلّ قل .
وإن رأي الدكتور في كتابه خوارق اللاشعور يخالف ما ذكره في وعظ السلاطين وأكد عليه مراراً.

فإنه يقول هناك: (فهتلر لم يبعث في الأمة الألمانية تلك الحماسة وذلك التعصب العجيب لآرائه بواسطة الإقناع المنطقي، إنما هو قد فعل ذلك بالإيحاء والتلقين والتكرار وبواسطة الإحتفالات والإجتماعات والإستعراضات).
(إن كلمة تكرر قولها على نفسك مرة بعد مرة لقادرة أن تطبع في عقلك الباطن شيئاً من الإيمان بها قليلاً أو كثيراً. والإيمان يزلزل الجبال كما يقولون).
(ينتقد بعض الكتاب القرآن لأنه يكرر القصص وآيات الوعظ مرة بعد مرة).

(وما درى هؤلاء المغفلون بأنّ هذا التكرار الذي ينتقدونه هو الذي طبع في نفوس العرب ذلك الإيمان العميق بالله، وجعلهم يحطمون إيوان كسرى وعرش القيصر في سنوات معدودة (٢)).
أرأيت كيف يناقظ الدكتور نفسه بنفسه، صدق الله العظيم حيث يقول:

« وَ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا » .

لقد وجدنا القرآن يأمر بالوعظ خلافاً لما ارتآه الدكتور، وأما رأيه في الأخلاق - الحسد والشهوة والأناية - فلو أردنا نقده وتمحيصه يجب علينا البدء بذكر موقف الإسلام من الحياة في هذه الدنيا، ليعرف منه مذهبنا تبعاً للقرآن

(١) وعظ السلاطين ص ٧.

(٢) الوردي في خوارق اللاشعور ص ١٥٠.

و الإسلام فلا يلتبس الأمر على أحد عند مناقشتنا لرأي الدكتور الوردى في الصفات المذكورة ، و يظننا ممن يرى الصواب في العزوف عن الدنيا ، و يتوهم أننا (إذا قلنا للناس أنبذوا الحسد و الأناثية فمعنى ذلك أننا نقول لهم اتركوا طبيعتكم البشرية و كونوا ملائكة) كما توهم الدكتور ذلك (١) .

موقف الإسلام من حياة البشر في الدنيا

لقد جاء الإسلام يدعو إلى السير في الطريق الوسط ، فإنه دعا العرب الوثنيين الذين لم يكونوا يعرفوا القيم الروحية إلى اعتناق المبادئ الإنسانية في الدين الإسلامي ، كما نهى عن الرهبة المسيحية و العزوف عن الدنيا ، فقد قال الله سبحانه :

« وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا » (٢) .
 و قال : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » (٣) .

موقف النبي (ص)

في البحار (٤) و الكافي (٥) : أن امرأة عثمان بن مظعون جاءت إلى

(١) راجع قبله (رأى أستاذ علم الاجتماع في الأخلاق) .

(٢) القصص : ٧٧ .

الظاهر من ذكر و لا تنس نصيبك من الدنيا بعد و ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و مقابلته لها أن المراد لا تنس نصيبك من اللذات المباحة في الدنيا كما ذكر ذلك بعض المفسرين .

(٣) الأعراف : ٣١-٣٢ .

(٤) البحار للمجلسي (٦ : ٧٣٥) .

(٥) الكافي للكليني (٥ : ٤٩٤) .

النبي (ص) (فقالت يا رسول الله إنَّ عثمان يصوم النهار ، و يقوم الليل فخرج رسول الله (ص) مغضباً يحمل نعليه حتى جاء إلى عثمان فوجده يصلي فانصرف (١) عثمان حين رأى رسول الله ، فقال له : يا عثمان لم يرسلني الله بالرهبانية ولكنه بعثني بالحنفية السهلة السمحة أصوم و أصلي و ألمس أهلي فمن أحبَّ فطر تي فليستنَّ بسنتي و من سنَّتي النكاح .

موقف أوصياء النبي (ص)

دخل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) في البصرة على العلاء بن زياد يعودده فلما رأى سعة داره قال : (ما كنت تصنع بسعة هذه الدار في الدنيا أما أنت إليها في الآخرة كنت أحوج ؟) .

بهذه العبارة رغب في الإقتصاد على قدر الكفاية و إنفاق الزايد عن الحاجة ، ثم بيّن بعد ذلك أنه يمكن أن يجمع بين السعة و القيام بالواجب بقوله : (و بلى إن شئت بلغت بها الآخرة تقري فيها الضيف و تصل فيها الرحم و تطلع منها الحقوق مطالعها (٢) فإذن أنت بلغت بها الآخرة) .

فقال له العلاء : يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد .
قال : و ما له ؟

قال : لبس العباءة و تخلّى عن الدنيا .

قال : عليّ به ،

فلما جاء قال : يا عدي (٣) نفسه لقد استهام بك الخبيث (٤) أما رحمت

(١) إنصرف أي إنصرف عن الصلاة و تركها .

(٢) تؤدي الحقوق .

(٣) عدي نفسه تصغير عدو .

(٤) غرّك الشيطان .

أهلك و ولدك ، أترى الله أحلّ لك الطيبات و هو يكره أن تأخذها ؟ أنت
أهون على الله من ذلك !
قال : يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك و جشوبة مأكلك (١) .
قال : ويحك إني لست كأنت ، إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا
أنفسهم بضعفة الناس كي لا يتبغ بالفقير (٢) فقره (٣) .
هذا هو رأي الدين الإسلامي في الدنيا و ملذاتها ، لا يرى تركها و لا
الانغماس فيها .

تأثير الحضارات الأجنبية في المسلمين

بعد انتشار الإسلام في أقطار الأرض و اختلاط المسلمين بغيرهم تأثر
أمرء المسلمين بحضارة البلاد المفتوحة ، فالأمويون في الشام تأثروا بآداب
الروم البيزنطيين (٤) و ساد بعض التقاليد الفارسية في بلاط العباسيين (٥)
بالعراق ، و هكذا بقية الدول الإسلامية في غير العراق و الشام ، ففي كل بلد من
البلاد الإسلامية أفرط الحكام في البذخ و الترف و أسرفوا في التبذير ، و كان هذا
البذخ و التبذير سبباً قوياً في إثارة جماعات من الزهاد في كل عصر لمقابلة
المترفين و التنديد بهم و وعظهم ، و لم يكن الوعظ في عصر الإسلام الأول مهنة

(١) جشوبة المأكل غلظته .

(٢) لا يتبغ بالفقير : لا يهيج بالفقير .

(٣) نهج البلاغة .

(٤) كان كاتب معاوية سرجون الرومي (التنبيه و الاشراف للمسعودي ص ٢٦١) ، و واليه على

خراج المسلمين في حمص ابن اثال النصراني (اليقوبي ص ٤٩) .

(٥) إتخذ بعض الخلفاء العباسيين النيروز و المهرجان عيدين رسميين .

يحترفها جماعة دون أخرى، وإِنما كان أفراد المسلمين ينفذون حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وعظهم وإرشادهم، وبمرور الزمن وابتعاد الناس عن عصر الإسلام الأول، وانتشار ثقافات الأمم المجاورة بين المسلمين دخل في الدين الإسلامي عنصر جديد، وانتشرت الدعوة إلى ترك الدنيا باسم الزهد وانتحل جماعة التصوّف وامتحنوا الوعظ، فقام قسم من الوعّاظ يعظون الناس و يطلبون منهم أن يخالفوا الغرائز البشرية، فلم ينتفع بوعظهم أحد.

رجوع إلى موقف أوصياء النبي (ص)

قال محمد بن المنكدر: أردت أن أعظ محمد بن علي بن الحسين فوعظني، خرجت إلى بعض نواحي المدينة في ساعة حارة، فلقيني أبو جعفر محمد بن علي وكان رجلاً بادناً ثقيلاً، وهو متكئ على موليين، فقلت في نفسي سبحان الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذا الحال في طلب الدنيا، أما لأعظته، فدنوت منه فسلمت عليه، فردّ عليّ بنهر وهو يتصابّ عرقاً، فقلت: أصلحك الله شيخ من أشياخ قريش في هذه الساعة على هذا الحال في طلب الدنيا أرايت لو جاء أجلك وأنت على هذا الحال ما كنت تصنع؟

فقال: لو جاءني الموت وأنا على هذا الحال جاءني وأنا في طاعة من طاعات الله عزّ وجل، أكفّ بها نفسي و عيالي عنك وعن الناس، وإِنما كنت أخاف أن لو جاءني الموت وأنا على معصية من معاصي الله. فقلت: صدقت أردت أن أعظك فوعظتني (١).

وقعت هذه المحاورة في أوائل القرن الثاني الهجري بين محمد المنكدر والإمام الباقر (ع)، وكان هذا الواعظ العابد يرى طلب الدنيا معصية لا ينبغي أن يشتغل بها الإنسان، بل ينبغي أن يترك الدنيا والعمل لها وينصرف إلى العبادة،

(١) البحار (١: ١٠٠).

وكان هو قد قسّم ليله بين نفسه وأمه وشقيقته أثلاثاً، كلُّ منهم يقوم بإحياء ثلثاً من الليل بالعبادة، فلما ماتت شقيقته قسّم الليل بينه وبين أمه نصفين، يقوم هو بإحياء نصف من الليل وتقوم أمه بإحياء النصف الآخر، وكان هذا الواعظ صادقاً في شعوره ولم يكن مرئياً، ولما أفهمه الإمام أنّ طلب الدنيا لإعاشة المرء نفسه وعياله طاعة من طاعات الله، صدّق الإمام وأتّعظ.

إلى هذا العصر كان بعض أفراد المسلمين يرغبون في الزهد والعبادة ويعظون غيرهم بحرارة وإيمان، وقبل أن يمضي النصف الأول من القرن الثاني الهجري شكّل رهبان المسلمين جماعات لبسوا الصوف وقاموا يدعون الناس إلى ترك الدنيا وترك العمل للدنيا ويطعنون في سلوك سائر المسلمين، وكان لهؤلاء مع الإمام جعفر الصادق (ع) محاورات ومناظرات.

(مرّ سفیان الثوري في المسجد الحرام فرأى جعفر الصادق (ع) وعليه ثياب حسان، فقال والله لآتينه ولأؤبّخنه، فدنا منه فقال: يا ابن رسول الله ما لبس رسول الله مثل هذا اللباس ولا علي ولا أحد من آبائك، فقال له أبو عبد الله كان رسول الله في زمن مقتر (١) وكان يأخذ لقتره وإقتاره، وأنّ الدنيا بعد ذلك أرخت عزاليها (٢) فأحقّ أهلها بها أبرارها ثمّ تلا: «قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَهَا لِعِبَادِهِ» (٣).

ويحدث الإمام نفسه ويقول: (بيننا أنا في الطواف فإذا رجل يجذب ثوبي وإذا عباد بن كثير البصري، فقال: يا جعفر تلبس مثل هذه الثياب وأنت في هذا الموضع مع المكان الذي أنت فيه من علي، فقلت: ثوب فرقيبي إشتريته بدينار، وكان علي في زمان يستقيم له ما لبس فيه، ولو لبست مثل هذا اللباس في زماننا

(١) مقتر: ضيق في النفقة.

(٢) أرخت السماء عزاليها: وقع المطر بشدة كناية عن الرخاء.

(٣) البحار (١١: ٢١٣).

لقال الناس هذا مراثي مثل عباد (١).
انتشر هذا المبدأ في ذلك العصر و أخذ هؤلاء يهاجمون غيرهم
بشدة ، فيكثرون على الإمام أن يلبس ثوباً يساوي ديناراً .
وإذا كان هؤلاء قد تركوا العمل للدنيا فمن أين كانوا يعيشون؟! وهل كانوا
كلأ على غيرهم؟!

الوعاظ الماديون

لقد ذكرنا في حديثنا عن الوعّاظ في العصور الماضية أنّ جماعة منهم كانوا
يطالبون الناس بالعزوف عن الدنيا و تركها ، و تناسوا الغرائز البشرية
و مقتضياتها ، و اهتموا بتقوية القوى الروحية في الإنسان فحسب .
وإذا أمعنا النظر في عصرنا الحاضر وجدنا أنّ جماعة من الوعّاظ الماديين
- الشيوعيين - لا يؤمنون بوجود شيء ما عدا المادة و ما ينشأ منها ،
و يكفرون بالقوى الروحية و آثارها ، و يدرسون جميع الظواهر في الكون على
ضوء نظريتهم المادية فحسب .

فإذا درسوا التاريخ نسبوا كل تطور في المجتمع البشري إلى عوامل
اقتصادية بحتة ، و إذا حللوا غرائز الإنسان لم ينتهبوا إلى غير غرائز الشهوة
و الحسد و الأنانية فيه ، فهؤلاء في كيفية دراستهم يشابهون باحثاً جرثومياً
(بكتريولوجيست) فحص في مختبره عن جرثومة خاصة في دم الإنسان ، فتتبعها
و سجّل أدوارها بكل دقة و إمعان ، ثم حاول أن يوفق بين جميع العوارض
الموجودة في بدن المريض و تلك الجرثومة ، و لم ينتبه إلى وجود سائر الجراثيم
في الدم و الآثار المنبعثة عنها ، فهو يصيب في كشفه حيناً و يخطئ أحياناً .
هكذا يعالج قسم من الكتّاب أخلاق البشر ، و كذلك يعلّلون تطور المجتمع

(١) البحار (١١: ٢١٢، ٢١٣).

البشري ، فهم ينظرون إلى العالم من زاوية واحدة فقط .
و أما نحن فلا ننكر تأثير العوامل الإقتصادية في حياة البشر ، غير أننا لا
نسئ المؤثرات الأخرى فيه أيضاً ، كما أننا في دراستنا لغرائز البشر ، نؤمن
بوجود الشهوة والحسد والأنانية ومقتضياتها فيه ، ولكننا نراها ونرى إلى جنبها
غرائز أخرى تقابلها .

الغيرة أو الرحمة و الرأفة و حب الخير في البشر

من انتبه إلى نفسه أو إلى ما يقوم به غيره ، لا بد وأنه يرى أو رأى من نفسه
أنه يرأف على طفل صغير يسقط ، أو يرحم شيخاً كبيراً يهوي ، وأنه قد خاطر
يوماً ما ، أو يرى من نفسه أنه يخاطر لإنقاذ غريق ، أو إطفاء حريق ، أو إغاثة
ملهوف ، أو إسعاف منكوب ، أو رأى وسمع من قام بتلك . فما هو الباعث للإنسان
إلى القيام بهذه الأفعال ؟

وماذا ترى دفع أصحاب الحسين (ع) إلى التفاني في سبيل الحسين ؟!
الأنانية أم الشهوة ؟ أم عقد نفسية قد تكونت على أثر كبت الغرائز الجنسية ؟
أم أن بواعث إقتصادية دفعتهم إلى ارتشاف كأس الشهادة ؟ أم ماذا ؟ إذا فكر
أحدنا في كل ذلك عرف أن الإنسان في حياته يعتمد على دعامين ، ويسير على
قدمين : الغرائز الحيوانية السابقة الذكر ، الشهوة والحسد والأنانية ، وما يقابلها
من الغرائز الإنسانية ، أي الرأفة والرحمة ، وحب الخير للغير ، والإيثار على
النفس حتى يرتفع إلى درجة التضحية بالنفس والنفيس في سبيل الصالح العام ،
في سبيل العدل ، في سبيل المبدأ الذي يدين به .

و يختلف البشر أشد الاختلاف في الإتصاف بكل واحدة من هذه
الصفات بعامل الوراثة والبيئة والظروف الإقتصادية والتربوية ، غير أن للبشر
قدرة خارقة على تكييف نفسه ، بتقوية بعض هذه الخصال وتضعيف البعض الآخر

، و بين هاتين المجموعتين من القوى المتقابلة : الأناية و الغيرية (١) صراع دائم في النفس ، فترى الغيرية في البعض تغلب أحياناً و تسوق صاحبها إلى الخيرات و الفضائل ، و آونة تتغلب الأناية ، فتدفع صاحبها إلى الشرور و الرذائل ، و قد يبقى الإنسان حائراً متردداً في تقديم إحداها على الأخرى .

و لو أمعن الدكتور الوردى و غيره من تلاميذ المدرسة المادية الديالكتيكية في دراسة الغرائز الإنسانية جميعها ، فدرسوا الغيرية في البشر إلى جنب دراستهم للغرائز الأناية المقابلة لها ، لما وقعوا في الغلط ، و لما قال دكتورنا الوردى : أن الصراع النفسي منشؤه الوعظ (٢) ، و أن ازدواج الشخصية منشؤه نشر التعليمات الدينية (٣) . و لعرف الدكتور أن الصراع النفسي أصيل في الإنسان ، و أن منشأه اتصاف جميع البشر - بدرجات متفاوتة - بالغريزتين الفطريتين : الأناية و الغيرية ، سواء أدخل الناس المساجد و الكنائس و سمعوا الوعظ و الإرشاد أو لم يدخلوا و لم يسمعوا .

الوعظ و الصراع النفسي و الوعظ و ازدواج الشخصية

يحاول الدكتور ، في فصل الوعظ و الصراع النفسي من كتابه و عَاط السلاطين ، أن يربط بين وعظ الواعظين و الصراع النفسي ، كما يحاول في الفصل الثاني تحليل ازدواج الشخصية في الإنسان بوعظ الواعظين و نشرهم التعاليم الدينية ، فيقول في ص ٢٠ منه :

(١) أن الأناية المتطرفة هي منشأ الرذائل الخلقية ، من بخل و جبن و حسد إلى غيرها من الصفات الذميمة . و الغيرية منشأ الفضائل الخلقية ، كالكرم و الشجاعة و حب الخير للغير .

(٢) راجع الوعظ و الصراع النفسي من وعظ السلاطين ص (٢٠-٢٦) و لعلك تجد المؤلف يناقض نفسه بنفسه في هذا الفصل .

(٣) راجع وعظ السلاطين ص (٥٤ - ٥٦) .

(الإنسان حين يسمع الواعظ يعظه بترك هذه الدنيا الخلافة يمسي حائراً فضميره يأمره بإطاعة الواعظ من ناحية ، و نفسه تجذبه من الناحية الثانية نحو الدنيا ، فهو إذن واقع بين حجري الرحى لا يستطيع أن يترك الدنيا ، و لا يستطيع أن يترك الجنة التي وعد بها المتقون .

يحكى أن عمر بن سعد بن أبي وقاص وقع ذات يوم في مثل هذا المأزق

الهرج .

و يُروى أنه كان يتقلب على فراشه و ينشد البيت التالي :

أترك ملك الري و الري منيتي

أم أرجع مأثوماً بقتل حسين)

لو كان الدكتور قد ألزم في كتابه هذا باتباع قواعد المنطق الحديث و منهج البحث في علم الاجتماع ، و لم يتسرع بالحكم قبل الإستقراء ، إستناداً إلى ملاحظته الفجة ، لتنبه إلى ملازمة الصراع النفسي للإنسان أينما كان ، إذ أن لكل إنسان شهوات و رغبات يسعى للوصول إليها ، بينما كل مجتمع يعيش فيه الإنسان لا بد له من نظام يقيد الفرد ، و يمنعه من متابعة أهوائه ، سواء أكان النظام دينياً أم مدنياً . فإذا كان الإنسان ضعيف الإيمان بنظام مجتمعه حاول التخلص من ذلك النظام أبداً و دائماً .

بينما يخشى من مجتمعه أن يعتبره مجرماً ، و عند ذلك يقع هذا الإنسان بين حجري الرحى ، قوانين مجتمعه و شهواته و أهوائه ، سواء أكان هذا الإنسان في العراق أم في أقاصي روسيا أو أمريكا .

إذن فالصراع النفسي نتيجة حتمية لضعف الإيمان بالنظام - هذا إذا لم يكن الصراع النفسي أصيلاً في طبيعة الإنسان مع اختلاف في الدرجات - كما سبق أن ذكرنا ذلك آنفاً (١) .

و أن حيرة عمر بن سعد و تردده في قتال الحسين ، أيضاً كان ناشئاً من

(١) راجع ما قبله ص ١٥ .

ضعف إيمانه بدين الحسين وجده . و من روى عن عمر بن سعد إنشاده البيت الذي استشهد به الدكتور ، يروي له بعد ذلك هذه الأبيات :

و في قتله النار التي ليس دونها
حجاب ولي في الري قرّة عين
يقولون إنّ الله خالق جنة
و نار و تعذيب و غلّ يدين
إلى آخر الأبيات ...

و ليس الأمر في ذلك منحصراً بمعتنقي الأديان و المعتقدين بالجنة و النار ^(١) فحسب . و إنّما هو عامّ بالنسبة إلى كل إنسان مع مبدئه و نظام مجتمعه ، أيّ ما كان مبدؤه و نظام مجتمعه ، و الشواهد على ذلك كثيرة و مشهودة لكل واحد .

و ذكر في ص ٢٣ : (إنّ المجتمعات الحديثة بدأت تقضي على بعض أسباب هذا الصراع النفسي ، حين أطلقت الحرية للمرأة ، و رفعت من مستواها الثقافي و الإقتصادي ، و سمحت لها بالاختلاط مع الرجل ، و بمغازلته و مراقصته و ملاعبته) .

و يقول في الهامش من نفس الصفحة : (أنّ المجتمعات الحديثة و إن كانت قد ابتليت بأدواء أخرى و لكنه مهما كان فهو خير من داء الصراع النفسي) .

إذا كان كل داء خيراً من داء الصراع النفسي ، إذن فمن الخير للإنسان - على رأي الدكتور طبعاً - أن يتحرّر من كل قيد إجتماعي و نظام إنساني مهما كان نوعه ، ليسلم من داء الصراع النفسي نهائياً .

إذن إلى الأمام .. إلى الأمام .. إلى الإباحية المطلقة .. إلى الفوضوية .. إلى حياة الغابات و الكهوف !! .

(١) راجع وعاظ السلاطين ص ٢٥ ، لترى كيف يحاول الدكتور أن يجعل ذلك ناشئاً عن العقيدة الدينية ، كالعقيدة بالجنة و النار مثلاً .

و في صدد الحجاب و تعداد مضارّه ذكر في ص ١٠-١١: (إنّ الجامعات الغربية تعنى بالشهوة كلّ العناية ، فلا تستحي و لا تعظ ، فهي تخصّص لطالبتها و طلابها أماكن للإختلاط و الرقص ، و تساعدهم علىّ التعرّف بعضهم ببعض و تهيب لهم أجواق الموسيقى ، و تشملهم جميعاً بجو من المرح و اللذة البريئة) . و يذكر أنّ أسناده قال له : (إنّنا إذا منعنا طلابنا و طالباتنا من الإختلاط المكشوف ، لجأوا إلىّ الإختلاط المستور ، بعيداً في جو ملوّه الريبة و الإغراء ، إنّنا إذ نعترف بما في الطبيعة البشرية من قوى ، و نهيب لها ما ينفس عنها في جو من البرائة و الطمأنينة ، نكون بذلك قد وقينا الإنسان من مزلق الشطط و مغريات الخفاء) .

إنّ طبيعة النفوس البشرية تتوق إلىّ الإتصال الجنسي و تحتاجه ، كما تتوق إلىّ الطعام و الشراب و تحتاجهما ، و كما أنّ النظر إلىّ أصناف الطعام و شمّ رائحتها و لمسها لا تشبع الجائع ، كذلك اختلاط الفتيات بالفتيان ، و الرقص و الموسيقى و المغازلة لا تشبع النهم الجنسي في الشباب ، بل إنّ كلّ هذه تزيده تعطشاً إلىّ الإتصال الجنسي ، فإذا سمحنا له بكل شيء جهازاً ما عدا الإتصال الجنسي ، فإنه عند ذاك يطفئ نار شهوته الملتهبة خفية و سرّاً .

و في آلاف القصص المتواترة عن الحوادث الجنسية المثيرة في بلاد الغرب آلاف الأدلة و البراهين علىّ ذلك ، و لا ينتهي المترفون المنجرفون وراء الشهوة الجنسية إلىّ حدٍ ، لينظر في ذلك الحد أهو صحيح أم باطل ؟ حتىّ يخلوا بنظام الأسر ، و يضيّعوا الأنساب ، إلىّ ما لا أستطيع له عدّاً و حصراً من المضار .

ذكرت مجلة (خواندنيها)^(١) الإيرانية تحت عنوان (لعبة تبديل الأزواج) نقلاً عن مجلة (بيجنت) الأمريكية : أنّها نقلت إهتمام الجرائد الأمريكية و مجلاتها بذكر (لعبة المفاتيح) ، أو (لعبة تبديل الأزواج) المنتشرة في مملكة (كويا) من أقصاها إلىّ أقصاها . ثمّ ذكرت كيف يجتمع ستة من الأزواج مع

(١) نقلناه ملخصاً عن ص ٢٩ من العدد ٥٦ من السنة ١٥ .

زوجاتهم - أو أكثر من ذلك أو أقل - في دار أحدهم ، و بعد شربهم المسكرات ، تلقي كل امرأة مفتاح دارها وسط الغرفة ، فمن التقطه من الرجال الحاضرين ذهبت معه إلى دارها ، و بات تلك الليلة معها ، حتى إذا أصبح المتبادلون رجع كل زوج إلى داره ، و قد يطول هذا التبديل أكثر من ليلة . و قد لوحظ أن هذه العادة في العائلات متوسطة الغناء أكثر إنتشاراً .

في مثل هذا المكان يقلّ الصراع النفسي ، حيث ينساق البشر وراء هواه بلا قيد و لا شرط ، فقد أراح هؤلاء الشيطان و كفوه شرّ الإغواء .
و إنّ مثل هذا الفعل الشائن - في عُرفنا - قد يقع في مملكة نساؤها سافرات ، فهل يعترف أستاذ علم الاجتماع بأنّ ذلك من مساوىء السفور ؟ لست أدري !! و لعله لا يرى فيه سوءاً و لا قبحاً ، لأنّ عرفهم الإجتماعي و إطارهم الفكري لم يجد فيه قبحاً و لا سوءاً^(١) ، و قال في ص ٢٥ منه : (دأب و عاظنا على تحبيذ الحجاب و حجر المرأة ، فنشأ من ذلك عادة الإنحراف الجنسي في الرجل و المرأة معاً .

ظنّ و عاظنا أنّهم يستطيعون أن يمنعوا الإنحراف الجنسي بواسطة الكلام و النصيحة وحدها ، غير دارين بأنّ الإنحراف طبيعة إجتماعية لا بدّ من ظهورها في كل بلد يحتجب فيه النساء عن الرجال) .

و قال : (قد دلّت القرائن على أنّ المجتمع الذي يشتد فيه حجاب المرأة يكثر فيه ، في نفس الوقت ، الإنحراف الجنسي ، من لواط و سحاق و ما أشبهه) .
و قال عنهما : (أنّهما أمران متلازمان ، فلا يوجد أحدهما إلاّ حيث يوجد الآخر) .

نكرّر القول بأنّ أستاذ علم الاجتماع لم يلتزم في بحثه عن الإسلام و تاريخه منهج البحث في علم الاجتماع و لم يسر في ضوء المنطق الحديث ، خلافاً لما ادّعه و جعله عنواناً لكتابه ، حيث قال : (رأي صريح في تاريخ الفكر

(١) راجع خوارق اللاشعور ص ٤٧ ، الفصل الأول (الإطار الفكري) .

الإسلامي في ضوء المنطق الحديث^(١) .

إنَّ الأستاذَ لَمَّا رأى ظاهرةَ الحجابِ و الانحرافِ الجنسي في مجتمع يعيش فيه ، و رأى جزءاً صغيراً من المجتمع الأمريكي - جامعة تكساس و بعض البلاد الأمريكية التي شاهدها - خالية من الظاهرتين معاً كما يزعم !! و سمع عن فرنسا مثل ذلك ، جعل ذلك سنداً لأحكامه القطعية الثلاث الآتية :

أولاً : نشأ الانحراف الجنسي في مجتمعنا على أثر تحييد الحجاب من قِبَل الوعّاظ .

ثانياً : ظنَّ الوعّاظ أنَّهم يستطيعون أن يمنعوا الانحراف الجنسي بواسطة الكلام و النصيحة وحدها .

ثالثاً : إنَّ الانحراف الجنسي طبيعة إجتماعية ، لا بدَّ من ظهورها في كل بلد يحتجب فيه النساء عن الرجال ، و يكثر في نفس الوقت الذي يشتد فيه الحجاب الانحراف الجنسي ، و إنَّهما أمران متلازمان لا يوجد أحدهما إلاَّ حيث يوجد الآخر .

نشأة الانحراف الجنسي

إذا بحثنا عن نشأة الانحراف الجنسي في مجتمعنا فقط ، مع غض النظر عن سائر المجتمعات الأخرى ، وجدنا أنَّ الانحراف الجنسي متأخر في مجتمعنا عن إنتشار الحجاب و إشتداده أكثر من قرن و نصف قرن ، إذ أنَّ الحجاب قد نشأ و انتشر في السنة الخامسة بعد الهجرة^(٢) ، حيث نزلت آيات الحجاب و دعا إليه الله و رسوله و نفذه الرسول و السابقون من المؤمنين في نسائهم .

فقد قال الله سبحانه مخاطباً نبيّه : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

(١) راجع ص ١ من غلاف كتابه ووعّاظ السلاطين .

(٢) كما صرّح بذلك جمع من المفسرين .

وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ
لِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي
الِإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ
بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَ تَوَبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ « (١) .

عن علي بن أبي طالب ، قال : مرّ رجل على عهد رسول الله (ص) في
طريق من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه فوسوس لهما الشيطان ،
أنّه لم ينظر احدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلى جنب
حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط فشقّ أنفه فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتي
رسول الله (ص) فأعلمه أمري ، فأتاه فقصّ عليه قصّته ، فقال النبي : هذا عقوبة
ذنبك وأنزل الله : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغْضُوا... » (٢) . وبهذا أمر الجنسين في هاتين
الآيتين بغض بصرهما عن النظر إلى الجنس الآخر ، كي لا يرى ما لا تخفيه الثياب
من محاسن الجسد ، كاعتدال القوام ، و فراهة الجسم ، وليتجنب بذلك رؤية زينة
الثياب الظاهرة لعين الرائي ، ثم أمر بحفظ الفرج عن الزنا (٣) بعد ذلك ، وأن لا
تبدي النساء زينتها ، كالسوار والقلادة ، إلا ما ظهر من الزينة كالثياب
والجلباب (٤) ، وأن يدين بخمرهنّ (٥) على جيوب قميصهن ، خلافاً لما كانت

(١) سورة النور : ٣١ - ٣٢ .

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور (٥ : ٤٥) عن ابن مردويه .

(٣) ذكر المفسرون أنّ حفظ الفرج في القرآن كناية عن التحفظ عن الزنا .

(٤) روى ذلك السيوطي في تفسيره عن ابن مسعود بعشرة أسانيد ، كما رواه الطبرسي وغيره
أيضاً .

(٥) الخمار : مقنعة المرأة ، وهي غطاء تستر بها المرأة رأسها وتسدل ذيلها على جنبها .

عليه النساء في العصر الجاهلي - قبل الإسلام - إذ كنَّ يلقين مقانعهن على ظهورهن فتبدو صدورهن . ونهاهن عن إبداء زينتهن لغير ذوي محارمهن من الرجال ، و لغير نساتهن المسلمات ، و لغير جواريهن من النساء ، و لغير الرجال التابعين ممن لا حاجة لهم في النساء ، لكبر سنهم ، أو لنقص في طبيعتهم ، أو المغفلين من الرجال . و لغير الأطفال الذين لم يميزوا عورة النساء من الرجال ، كما نهاهن عن أن يضرين بأرجلهن ليسمع صوت زينتهن من الخلاخيل ، و غيرها مما يخفين من الزينة .

و بعد أن ذكر الله في الآيات المتقدمة من أبيض له الدخول على النساء من التابعين و الأطفال ، بين بعد ذلك أن على هؤلاء أيضاً أن يستأذنوا في الدخول عليكم في ثلاثة أوقات ، حيث قال :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَ أَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ » (١) .

في السنة الخامسة من الهجرة نزلت آيات الحجاب و التي منها الآية الكريمة :

« وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ » (٢) .

(١) النور ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

(٢) الأحزاب ، ٥٩ .

روت أم سلمة - و ذلك بعد نزول آيات الحجاب - و قالت : (كنت عند النبي و ميمونة . بينا نحن عنده أقبل ابن أبي أم مكتوم فدخل عليه فقال رسول الله (ص) : إحتجبا عنه . فقالت : يا رسول الله أليس هو أعمى لا يبصرنا ؟ فقال : أعميا وان أنتما ؟ أألستما تبصرانه ؟ (١) .

و خاطب الله نبيه أيضاً و قال : « يا أيُّها النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ (٢) ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٣) » .

عن أم سلمة و عن عائشة قالتا : (لما نزلت هذه الآية خرج نساء الأنصار كأنَّ عليَّ رؤسهن الغربان من أكسية سود يلبسناها (٤)) .

و روى محمد بن سيرين قال : (سألت عبيدة السليماني (رض) عن قول الله يدنين عليهن من جلابيبهن ، فتفتَّح بملحفة فغطى رأسه و وجهه و أخرج إحدى عينيه (٥)) .

لقد تلونا القرآن فوجدناه يفرض الحجاب على النساء و يأمر الجنسين بغضِّ البصر ، و يأمر النساء بإخفاء الزينة و يتشدَّد في الحجاب حتى يقول : « و لا يَخْضَعْنَ فِي الْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى (٦) » .

و يتشدَّد النبي حتى يقول : (أيما امرأة استعطرت فخرجت فمررت على قوم

(١) أخرجه السيوطي في الدر المنثور (٥ : ٤٢) عن أربعة طرق ، و الزمخشري في تفسيره (٢ : ٩٠) و قال : كان ذلك بعد نزول آية الحجاب .

(٢) الجلباب : الملاء التي تلبسها المرأة فوق ثيابها (كالعباءة) .

(٣) الأحزاب : ٥٩ .

(٤) أخرجه السيوطي في تفسيره (٥ : ٢٢١ ، ٢٢٢) عن طرق عديدة .

(٥) في تفسير السيوطي (٥ : ٢٢١ ، ٢٢٢) .

(٦) الأحزاب : ٣٢ و ٣٣ .

فيجدوا ريحها فهي زانية (١) .

وقد أسقط الإسلام عنهنّ الجهاد، والجمعة، والجماعة، وتشيع الجنائز، والهرولة بين الصفا والمروة، والجهر بالتلبية (٢)، ومنعهن عن الإختلاط بالرجال، كل هذا التشديد في الحجاب من الله ورسوله، ومنذ عصر الرسالة، ولكنّ أستاذ علم الاجتماع ينسبها إلى الوعّاظ!! فهل إنّ ذلك لجهله بمنشأ الحجاب أم أنّه أراد أن يسب رسول الله حين قال: ما مرّ عليك، وحين يقول: (نشر الوعّاظ مبدأ الحجاب في المجتمع الإسلامي، وأيدوه بالأدلة العقلية والنقلية، ولعلّهم أرادوا بذلك - لا شعورياً - أن يندروا الفقراء بالويل والثبور ويمنعوهم من التطلّع إلى ما في داخل القصور الشامخة من بيض حسان . فالواعظ حين يقول: (لا تنظر إلى المرأة) ربما أراد أن يقول لا تنظر إلى جوارى غيرك (٣) .

كان صدور تشريع الحجاب في السنة الخامسة بعد الهجرة كما مرّ عليك ذلك . فهل الدكتور يقصد بالواعظين - حين يقذفهم - رسول الله وآله وصحابه الذين نفّذوا أمر الحجاب في بدئه أم ماذا؟ لست أدري!! وكان قصدي من ذكر الآيات الواردة في الحجاب والأحاديث المبيّنة لها بيان تاريخ الحجاب ومنشأه، ولم أكن بصدد بيان وجوب الحجاب في الدين الإسلامي، ولا في صدد بيان محسناته، لأنّي واثق كل الوثوق بأنّ سبب إنتشار التبرج والسفور بين نساء المسلمين ليس جهلهم بحرمة التبرج والتعريّ تجاه الأجنبي، وإنّما الباعث لهم على ذلك هي الشهوة والهوى فحسب، وإن احتجّوا بالتمدّن الغربي وما عداها . وهل من ينكر حرمة شرب الخمر ولعب القمار وأخذ الربا إلى عشرات من غيرها من المحرمات في الدين الإسلامي . أليس كل ذلك محللة في القوانين

(١) الدر المنثور للسيوطي (٥ : ٤١) .

(٢) سفينة البحار (٢ : ٥٨٧) يرويها المحدث القمي عن رسول الله (ص) .

(٣) وعّاظ السلاطين ص ١٢ .

المرعية في البلاد الإسلامية !!؟

إشتد الحجاب في السنة الخامسة بعد الهجرة، ويذكر التاريخ أن الإنحراف في الإتصال الجنسي انتشر بين المسلمين في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الهجرة، ولم ينتشر في نفس الوقت، كما ذكره الدكتور.

وقد شاع الإنحراف الجنسي بين المسلمين بعد أن غمرت بيوت الأمراء والشعراء والأثرياء موجة من الغلمان الأمارد، مع ظهور الغلو في حجر نساء الأشراف عن الزواج، من أمثال العباسة أخت الرشيد^(١) وأقرانها، وبعد أن ضعف الوازع الديني في نفوس المسلمين، وانتشرت دور الخمر، وشاعت الزندقة، وراود الشعراء وأهل الترف الأمارد من الغلمان في الديارات المنتشرة في طول البلاد الإسلامية، بقصد الإستمتاع واللذة، وعقدوا مجالس الأنس والنزهة في دور حرّم سكانها الإتصال الجنسي في العلن، وأباحوا شرب الخمر جهراً، وأما ماذا عملوا سراً، فذاك أمر يعلمه الله والمرتادون لتلك الديارات بقصد الإستمتاع واللذة. عند ذلك انتشر التشيب بالغلمان إنتشاراً هائلاً، وبقيت آثارها حتى اليوم، تفسد بعض المجتمعات الإسلامية، وستبقى ما زال الشباب يسمع قصصهم المغرية بالفساد، ومجونهم وتغرّلهم الخليع، مع ضعف الوازع الديني فيهم. أضف إليهما إنتشار المشاكل المانعة عن الزواج في هذا العصر باطراد.

بواعث إنتشار الشذوذ الجنسي بين المسلمين

إنّ الإنسان بطبيعته يطمح إلى الرفعة والتعالى على غيره من البشر، فإن لم يؤت حظاً من ذلك، يحاول - لا شعورياً - ستر تأخره، و التهرّب من إنحطاطه بمحاكاة القوي الغالب، و تقليده في سلوكه، و طرق معيشته، و قد كان القدماء

(١) مروج الذهب للمسعودي (٢: ٢٨٦).

يعبرون عن ذلك بقولهم : الناس على دين ملوكهم (١) .
 ولما كانت الطبقة الحاكمة من الأمراء و من اتصل بهم من الندماء ،
 والشعراء ، و غيرهم من ذوي النفوذ و الجاه ، قد راج بينهم الشذوذ الجنسي ،
 وانتشر انتشاراً فظيماً في أخريات القرن الثاني الهجري ، أدى ذلك إلى سريان
 هذا الداء الوييل إلى سائر طبقات الشعب يومذاك .
 و قد نستطيع أن نعدّ ، ما ذكرناه ، السبب الأول في إنتشار هذه الرذيلة بين
 المسلمين منذ ذلك العصر .

بداية إنتشار الشذوذ الجنسي في نهاية القرن الثاني الهجري

إنّ الباحث المتتبع في عصور الإسلام الأولى قد لا يجد من هذا الإنتشار
 المشين للشذوذ الجنسي قبل عصر الرشيد ، و لا يجد التشبيب بالغلّمان و التغزل
 بالجنس الذكر في الأدب العربي قبله .

فالأمويون و إن كانوا قد شجّعوا الشعراء الغزليين بالتشبيب بنساء البيوتات
 الكريمة في مكة و المدينة ، و روجوا السكر و الغناء بين أهلهما لإلهائهم عن
 معارضتهم ، و صرفهم عن تأييد الناقلين على بني أمية ، من أمثال السبط الشهيد ،
 و ابن الزبير ، و ابن غسيل الملائكة في واقعة الحرّة ، و التائبين من أهالي الكوفة
 ثم المختار .

إن كان الأمويون قد روجوا كل ذلك لغرض سياسي ، فإنّ العباسيين قد
 جرفهم الترف في الشهوة الجنسية إلى الفحص عن متعة جديدة صعبة المنال
 (اللواط بالغلّمان) ، ثم أصبح ذلك (موضة) العصر العباسي ، و على أثر ذلك إنفتح
 باب التغزل بالغلّمان في الأدب العربي فولج شعراء المجون بكل تهتك و استهتار .

(١) و هذا هو الدافع لأمثال الدكتور الوردى ، من ذوي الشخصيات الضعيفة ، إلى تقليد
 الغربيين الأقوياء و محاكاتهم في كل شيء .

وكان الرشيد نفسه أول خليفة عباسي بل أول خليفة من المسلمين يروى
منه التغزل بالغلان وقد روى له الشابستي في كتابه الديارات ص ١٤٥ و ١٤٦
هذه الأبيات :

ملكته في ملكه ظالم	ملكته من أصبح لي مالكا
وهو بحبي خير عالم	أحبته من بين هذا الوري
يعذر في أمثاله اللائم	قبيح فعل حسن وجهه
لو أنه في حسنه راحم	أحسن من أبصره مبصر

محمد الأمين

وكان محمد الأمين ابن الرشيد أول خليفة إشتهر بالشغف بالغلان فقد كان
يهوى غلامه كوثر ، قال الخطيب في تاريخه (١) :
(خرج كوثر غلام الأمين ليرى الحرب فأصابته رجمة فجلس يبكي فوجه
محمد من جاء به وجعل يمسح الدم عن وجهه ثم قال :

ضربوا قررة عيني	و من أجلي ضربوه
أخذ الله بقلبي	من أناس أحرقوه
ولم يستطع أن يتمم البيتين فأتتهما عبد الله بن أيوب التميمي بقوله :	
ما لمن أهوى شيبه	فبه الدنيا تتيه
وصله حلو ولكن	هجره مرّ كرية
إلى آخر الأبيات ...	

فأقر له ثلاثة أبغل دراهم .

ولما بلغه بأن الناس يلومونه فيه وفي ترك النظر في أمور الناس ، قال :
ما يريد الناس من صـ ب بمن يهوى كئيب

(١) في ج ٤ / ص ٣٣٩ من تاريخ بغداد .

ليس أن قيس خليا قلبه مثل القلوب
كوثر ديني و دنيا ي و سقمي و طيبني
أعجز الناس الذي يد حي محباً في حبيب^(١)

ولما رأت زبيدة أن ولدها الأمين قدّم الخدم و آثرهم و رفع منازلهم ،
ككوثر و غيره ، و رأت شدة شغفه و اشتغاله بهم ، إتخذت الجواري الحسان
الوجوه ، و عمّت رؤسهنّ ، و جعلت لهنّ الطرر و الأصداغ^(٢) . و ألبستهنّ
الأقبية^(٣) و المناطق^(٤) فبانّت قدودهنّ ، و برزت أردافهنّ ، و بعثت بهنّ إليه
فاستحسنهنّ و اجتذبن قلبه و أبرزهنّ للناس من الخاصة و العامة ، و اتخذ الناس
من الخاصة و العامة الجواري المطمومات^(٥) و ألبسوهنّ الأقبية و المناطق
و سمّوهنّ الغلاميات^(٦) .

أرأيت أن أمير المؤمنين محمد الأمين لم يكن يرغب في الجواري الحسان
حتى ألبستهنّ زبيدة لباس الغلمان ، و أخرجتهنّ بزّي المرد الملاح . إقرأ هذه
القصة و تدبّر ، هل تصدّق على من اتّخذ الغلاميات قول الدكتور : إنّه نشأ من تحبيد
الحجاب و حجر المرأة) ، (عادة الإنحراف الجنسي في الرجل و المرأة معاً .
فالإنسان ميال بطبيعته نحو المرأة ، و المرأة كذلك ميالة نحو الرجل . فإذا منعنا

(١) تاريخ الخطيب (٤ : ٣١٤) .

(٢) يقصد أنّها صفت شعر رؤسهنّ كتصنيف شعر الغلمان في ذلك العصر .

(٣) الأقبية : واحدها القباء ، و هو ما يسميه العراقيون بـ (الزبون) .

(٤) المناطق : واحدها المنطقة ما يشدّد به الوسط (حزام) .

(٥) طمّ البئر دفنها و سواها ، و الجواري المطمومات كناية عن ترك نكاحهنّ من الطريق
الطبيعي .

(٦) نقلتها ملخصاً عن مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٥١٧) .

وفي الديارات ص ١٠٥ عن عريب المغنية أنّها قالت : كنت وصيفة لمحمد الأمين ألبس قباء
و منطقة و أقوم على رأسه و ربما سقيته و سني إذ ذاك (١٧) سنة .

هذه الطبيعة من الوصول إلى هدفها بالطريق المستقيم لجأت إضطراراً إلى السعي نحوه في طريق منحرف (١)؟!!

فهل الذين اتخذوا الغلاميات من الخاصة والعامة في ذلك العصر إتخذوهن لأنّهم مُنعوا من الوصول إلى المرأة؟ أم أنّ ذلك كان من العامة تقليداً منهم للطبقة الحاكمة؟ وكان من أمير المؤمنين والخاصة، بدافع الترف والإنطلاق وراء هوى النفس بكل حرية؟! « وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا » (٢).
وما أرى الدكتور الوردي إلاّ محبداً لهؤلاء في عملهم ، لأنّهم عالجوا (داء الصراع النفسي) في أنفسهم بهذا العلاج !!!.

في مصر المأمون

شكى البصريون إلى المأمون عن قاضيهم يحيى بن أكثم بن عمر بن أبي رياح التميمي (وأتته أفسد أولادهم بكثرة لواطه) ، و (ظهرت منه الفواحش و ارتكاب الكبائر) ، و ذكروا له أبياته (في صفة الغلمان و مراتبهم) فعزله عنهم فقال فيه ابن أبي نعيم :

يا ليت يحيى لم يلبده أكثمه
و لم تطأ أرض العراق قدمه
ألوط قاض في العراق نعلمه

قال المسعودي : و ضرب الدهر ضرباته ، فاتّصل يحيى بالمأمون ، و نادمه و رخص له في أمور كثيرة فقال له يوماً : يا أبا محمد من الذي يقول :

قاض يرى الحدّ في الزناء و لا
يرى على من يلوط من بأس

(١) و غاظ السلاطين ص ٩ .

(٢) الإسراء : ١٦ .

قال : ذلك ابن أبي نعيم القائل :

ما أحسب الجور ينتضي و على الأمة وال من آل عباس .

فخجل المأمون و نفى الشاعر إلى السند .

و بلغ من إذاعته و مجاهرته باللواط أن المأمون أمره أن يفرض لنفسه فرضاً
يركبون بركوبه ، و يتصرفون في أموره ، ففرض أربعائة غلام مرد إختارهم
حسان الوجوه فافتضح بهم و قال في ذلك راشد بن إسحاق أبياتاً منها :

(متى تصلح الدنيا و يصلح أهلها

و قاضي قضاة المسلمين يلوط (١))

ليت شعري إن كان عزل يحيى بن أكنم عن قضاء البصرة لاستهتاره باللواط، فما
الذي سوَّغ للمأمون أن يوليه أرفع منزلة دينية بعد الخلافة و يجعله قاضي قضاة
المسلمين ، و يرخص له في أمور كثيرة ، أكان اللواط تحت سمع الخليفة و بصره لا
حرج فيه ؟!

ثم أترى من كان يخدمه اربعمائة غلام أمرد لم يكن يتهيأ له مئات
الجواري الحسان لتكون الطبيعة قد ألجأته إلى السير في الطريق المنحرف كما
يقول الوردى (٢) !!

في مصر المتوكل

الخليفة و وزيره و خادمه .

كان الفتح بن خاقان يعشق شاهك خادم المتوكل و له فيه أشعار منها قوله :

أشاهك ليلى مذ هجرت طويل

و عيني دماً بعد الدموع تسيل

إلى آخر الأبيات ...

(١) راجع مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٣٢٨ - ٣٢٩) .

(٢) راجع قبله ص ٢٩ .

و اشتهر أمره فيه حتى بلغ المتوكل . (وكان أبو عبد الله نديم المتوكل يسعى فيما يحبّه الفتح ، فعرف المتوكل الخبر و قال له : إنّما أردتك و أدنيتك لتنادمني ، ليس لتقود عليّ غلmani) . فنفاه إلى تكريت و أمر بقطع أذنه (١) .

المتوكل يفري الخليج بالتفزل بخادمه

كان المتوكل يعرض عليه الهدايا في يوم نوروز ، و شفيع الخادم واقف و عليه الأقيبة الموردة (و هو أحسن الناس وجهاً فيها) ، فجعل المتوكل يدفع إلى شفيع قطعاً من (العنبر ، و يقول : إُدفعها إلى حسين ، و اغمز يده فيفعل ذلك) . فأنشأ الخليج يقول أبياتاً منها :

له عبات عند كل تحية
بكفيه تستدعي الخليّ إلى الوجد
تمنيت أن أسقي بكفيه شربة
إلى آخر الأبيات ...

(فأمره المتوكل أن يسقيه ، و قال : قد أعطيناك أمينتك (٢)) .

إنّي ليأخذني العجب كلما فكرت في أمر أميري المؤمنين المتوكل و المأمون و شدة تنكيلهما بالقائلين بخلق القرآن أو قدّمه ، في حين أنّهما كانا لا يريان في اللواط من بأس (٣) !!!

و لم يكن الخلفاء من بعد هؤلاء ، أقلّ غراماً بالغلمان من أسلافهم ، فإنّ

(١) ص ٤ و ٥ من الديارات للشابشتي .

(٢) الديارات للشابشتي ص ٣٧ - ٣٨ ، و في مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٣٩٤) أنّ المتوكل أمره أن يقول فيه أبياتاً .

(٣) أمر المأمون بمعاينة القائلين بقدّم القرآن من أمثال أحمد بن حنبل ، و المتوكل أمر بمعاينة القائلين بأنّ القرآن مخلوق .

المعتز كان يهوى يونس بن بغا ، فلم يكن يفارقه ولا يصبر عنه ، وقد تغزل فيه بأبيات كثيرة (١) .

وكان المعتمد يهوى غلامه بدر الجلنار ، وله أبيات غزل فيه وفي غيره من الغلمان (٢) .

وكان للمعتضد غلام يهواه اسمه بدر ويكنى أبا النجم ، وكان يلتبس الحوائج به من المعتضد ، وكانت الشعراء تقرن مدح بدر بمدح المعتضد .
ورآه ذات يوم قادماً فتمثل قائلاً :

في وجهه شافع يمحو إساءته (٣)
وقال المكتفي في عبد له :

من لي بأن تعلم ما ألقى
فتعرف الصبوة والعشقا
ما زال لي عبداً وحبلي له
صيرني عبداً له رقا
أعتق من رقي ولكنني
من حبه لا أملك العتقا (٤)

وكان أمراء المسلمين - أولاد الخلفاء - في ذلك العصر - عصر الفساد - من أمثال صالح بن الرشيد (٥) والفضل بن العباس بن المأمون أكثر تهتكاً واستهتاراً من آبائهم الخلفاء .

(١) الديارات للشابشتي (١٠٤ - ١٠٧) و (٦٤ - ٦٥) .

(٢) الديارات للشابشتي (٦٦ - ٦٩) .

(٣) مروج الذهب للمسعودي (٢ : ١٩٢ - ٤٩٣) . في ترجمة المكتفي .

(٤) مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٤٩٩) .

(٥) هو ابن هارون الرشيد من زوجته رثم . راجع الديارات للشابشتي ص (٣٨ - ٣٩)

والأغاني (٦ : ١٧٦ و ١٧٧) .

وكان هؤلاء الحكام يشجعون شعراء المجون ، من أمثال الحسين بن الضحاك الخليع^(١) على التغزل بالغلمان ، ويهبونهم العطايا الجزيلة على ذلك ، في حين اتهم كانوا يسجنون موسى بن جعفر (ع) ويسمونه في السجن^(٢) ، ويحجرون على علي الهادي (ع) بعيداً عن دياره^(٣) ، ويضربون أمثال ابن حنبل على رأيه ، وينصبون يحيى بن أكثم على قضاء المسلمين ، فمن الأحرى أن نسَمِّي تاريخ ذلك العصر بتاريخ عصر الطغيان ، لا تاريخ العصر الذهبي !!!

إذا كان أمير المؤمنين في العصر الذهبي يغري باللواط ، ووزيره يلوط ونديمه يقود ، وقاضي قضاة المسلمين يلوط ، فإن الرعية تكون كما قال الشاعر :

إذا كان رب البيت بالدف مولعاً
فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

فهذا هو السبب الأول - على رأيي - في إنتشار اللواط و السحاق بين المسلمين منذ ذلك العصر . وكان السبب الثاني في إنتشار اللواط وغيره كالزنا ، و شرب الخمر ، و حياة المجون ، إنتشار الديارات المسيحية في البلاد الإسلامية .

(١) شاعر ماجن ، نادم الأمين و هجره المأمون ، ثم نادم بقية الخلفاء إلى المستعين ، و سمي بالخليع لكثرة مجونه و خلائعه ، مات ببغداد سنة ٢٥٠ هـ . راجع الديارات للشابشتي (ص ٢٢ و ٣٥ و ٣٩) ، و معجم الأدباء (٤ : ٣٠ - ٣٨) .

(٢) موسى بن جعفر (ع) سابع أئمة أهل البيت ، ولد بالحجاز سنة ١٢٨ هـ ، و بعث به الرشيد مخفوراً إلى البصرة ، و سجنه بها ، و ثم سجنه ببغداد و دس إليه السم في السجن ، فتوفي سنة ١٨٣ هـ بعد أن بقى في السجن ١٥ سنة .

(٣) علي الهادي عاشر أئمة أهل البيت (ع) ، ولد بالقرب من المدينة سنة ٢١٤ هـ ، و جلبه المتوكل العباسي إلى سامراء ، و بقي فيها حتى توفي سنة ٢٥٤ هـ ، و قبره بها مزار للمسلمين .

الديارات المسيحية

وللديارات المسيحية في العصر العباسي قصص خلّاعة ذكرتها الكتب الأدبية المؤلفة في نفس العصر ، كالديارات للشابستي ، والأغاني للأصبهاني ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي .

وكان مؤسسوا تلك الديارات قد شيّدوها في أماكن حسنة نزهة بين الحدائق والأشجار ، وقد اشتهرت بعض تلك الديارات بجودة خمورها التي كانت تصدرها إلى البلاد المجاورة لها .

وكان أهل البطالة والخلاعة يجدون في تلك الأديرة من الفتيات الحسان والأمارد الملاح ما يجلبهم إليها ، فكانوا يقصدونها للهو والطرب ، ويعتفون فيها ويقضون أيامهم بين السكر والغناء ، وخاصة في أيام أعياد النصارى ، إذ كان يجتمع إليها خلق كثير من الجنسين طلباً للأنس والمتعة ، وقد اقتطفنا من قصصهم الكثيرة نتفاً للبرهنة على مبلغ تأثير تلك الديارات في أخلاق المجتمع آنذاك .

يقول الشابستي في ترجمته عن دير در مالس (١) :

(و أعياد النصارى ببغداد مقسومة على ديارات معروفة ، منها أعياد الصوم (٢) . فالأحد الأول : عيد دير العاصية (٣) ، والأحد الثاني دير الزريقية (٤) ، والأحد الثالث : دير الزندروود (٥) ، والأحد الرابع دير در مالس هذا ، وعيده أحسن عيد ، يجتمع نصارى بغداد إليه ، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة

(١) كان هذا الدير في أعلى بغداد بالجانب الشرقي منها .

(٢) يقول الأستاذ كوركيس : يريد به (الصوم الكبير) ومدته خمسون يوماً / الديارات ص ٣ .

(٣ ، ٤) لم يعلم عنهما شيء .

(٥) كان بالجانب الشرقي من بغداد ، وأرضها كلها فواكه وأترج وأعناب ، وهي من أجود

الأعناب التي تعصر ببغداد ، وفيها يقول أبو نؤاس :

فسقني من كروم الزندروود ضحى .. الخ راجع الديارات ص ٢١٥ .

إلّا واتّبِعهم . و يقيم الناس فيه الأيام ، و يطرقونه في غير الأعياد (١) .
و ذهب إليه عبد الله بن حمدون النديم (٢) طلباً للأنس بعد أن نفاه
المتوكل (٣) لقيادته على غلامه شاهك (٤) ، فبقي هناك و شرب و طبّبت نفسه ،
و شغف بالأحداث الذين كانوا يقضون حوائجهم و يجيئونهم بالطرفة و التحية (٥) ،
فأنشد في وصفهم :

يا دير درمالس ما أحسنك
و يا غزال الدير ما أفتنك
التي آخر الأبيات ...

دير سمالو

كان شرقي بغداد (و عيد الفصح ببغداد ، فيه منظر عجيب . لأنّته لا يبقى
نصراني إلّا حضره) و لا أحد من أهل التطرّب و اللهو إلّا قصده للتزّه فيه . و هو
أحد منتزهات بغداد المشهورة ، و مواطن القصف المذكورة .
و للشعراء فيه و في سكانه غزل و تشبيب (٦) .

(١) راجع الديارات ص ٣ .

(٢) كان نديماً للمتوكل . راجع الديارات ص (٤ - ٨) .

(٣) كان عاشراً خلفاء بني العباس و توفي سنة ٢٤٧ هـ . راجع المسعودي (٢ : ٣٦٨ - ٣٩٨) .

(٤) راجع ما قبله ص ٣١ .

(٥) التحية : التحفة و الطرفة ، طاقة من الأزهار و الرياحين أو غيرها مما يحيى بها الندماء .
راجع الديارات ص (٤) .

(٦) راجع الديارات ص (٩ - ١٠) ، و معجم البلدان .

دير الثعالب

كان بالجانب الغربي من بغداد على بُعد ميلين ، قال الشابشتي :
(وأهل بغداد يقصدونه ويتنزهون فيه ، ولا يكاد يخلو من قاصد وطارق .
وله عيد لا يتخلّف عنه أحد من النصارى والمسلمين) .

ولا بن دهقانة الهاشمي ^(١) فيه أبيات منها :

دير الثعالب مآف الضلال

ومحل كل غزالة و غزال

ومنعم دين المسيح دينه

غنج يشوب مجونه بدلال ^(٢)

وللشاعر سبط بن التعاويذي المتوفي سنة ٥٥٣ هـ فيه أبيات منها :

و غزال علقته يوم دير الثعالب

من ظباء الصريم يخـ طر في زي راهب ^(٣)

دير الجائيق

كان ببغداد . قال الشابشتي ^(٤) فيه : (وهو مقصود مطروق لا يخلو من
المتنزهين فيه والقاصدين له . وفيه رهبانه وفتيانه ، ومن يألفه أهل الخلاعة
والبطالة) .

(١) ابن دهقانة هذا من ولد إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، ويعرف بأبي جعفر
محمد بن عمر . (الديارات ص ١٧) .

(٢) راجع الديارات ص (١٦ - ١٧ و ٢١٩ - ٢٢٠) ، ومعجم البلدان (٤ : ١٢٩) .

(٣) ذيل الديارات ص (٢٢٠) ويحكي في ص (٢٢١ - ٢٢٢) عن راهبة أغرت إثنين في يوم
عيد (الذكران) .

(٤) في الديارات ص (١٨)

وقالت الشعراء فيه ووصفته، ولمحمد بن أمية الكاتب^(١) فيه :
تذكرت دير الجاثليق وفتية
بهم تمّ لي فيه السرور وأسعفا
أغازل فيه أدعج الطرف أهيفا
وأسقى به مسكية الطعم قرقفا^(٢)

دير مديان^(٣)

كان ببغداد . قال الشابشتي : (يقصد للتنزه ، ولا يخلو من قاصد وطارق ،
وهو من البقاع الحسنة النزهة) .

(وكان أبو علي بن الرشيد يلازم هذا الدير ويشرب فيه ، وكان له قيان^(٤)
يحملهم إليه و يقيم به الأيام لا يفتر عزفاً و قصفاً ، وكان شديد التهتك ، وكان من
يجاور الموضع يشكون ما يلقون منه) .

فنهاه خليفة السلطان ببغداد ، فجرى بينهما كلام أغضب الوالي فيه . فجاء
إليه ليلاً ، وأمر أن يفتح باب الدير ، وينزل به على الحال التي هو عليها ، فأنزل به
وهو سكران ، فجلده ٢٥ جلدة وأرسل به إلى داره^(٥) .

دير قوطا

كان على بعد سبع فراسخ من بغداد بالقرب من الخالص . قال الشابشتي :

(١) كان كاتباً للفضل بن ربيع / الديارات ص (١٩) .

(٢) القرقف من أسماء الخمر .

(٣) الديارات ص (٢١ - ٢٢) ، و معجم البلدان (٤ : ١٧١) .

(٤) القيان : واحدها القينة وهي الأمة المغنية .

(٥) الديارات ص (٢١ - ٢٣) .

(إنّ في هذا الموضع ما يطلبه أهل البطالة والخلاعة من الوجوه الحسان ، و البقاع الطيبة النزهة ، فليس يكاد يخلو . و لعبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع ^(١) فيه :

يا دير قوطا ، لقد هيجت لي طربا
أراح عن قلبي الأحران و الكربا
و شادن ما رأّت عيني له شيها
في الناس ، لا عجماً منهم و لا عربا
أقمت بالدير حتى صار لي وطننا
من أجله و لبست المسح و الصلبا ^(٢)

عمر الزعفران

قال الشابستي : (و شرابه موصوف يحمل إلى نصيبين و غيرها ، و ليس يخلو من أهل القصف و اللعب ، فهو و سائر بقاعه معمورة بمن يطرقه ^(٣)) .

و لمصعب الكاتب ^(٤) في دير عمر الزعفران أبيات منها :

عمرت بقاع عمر الزعفران بفتيان غطارفة هجان
و بنوهم و يوحنا و شعيا ذوو الإحسان و الصور الحسان

(١) كان عبد الله هذا (صاحب غزل و مجون ، كثير التطرح في الديارات و الحانات و الأتباع لأهل اللهو و الخلاعة ، و كان في أيام المعتصم . راجع الديارات ص (٤١ و ٤٢) .

(٢) المسح ثوب من الشعر يلبسه الرهبان تقشفاً .

(٣) الديارات ص (١٢١) .

(٤) يقول الشابستي : (و كان مصعب هذا من أشدّ الناس تهتكاً و أكثرهم خلاعة و مجوناً و استهتاراً بالمرء و تطرحاً في الحانات و الديارات) . الديارات ص (١٢٣) .

رضيت بهم من الدنيا نصيبي غنيت بهم عن البيض الغواني
أقبل ذا وأثم خد هذا وهذا مسعد سلس العنان^(١)

دير مريخنا

قال الشابستي : (وهذا الدير إلى جانب تكريت مطروق مقصود لا يخلو
من المتطربين والمنتزهين) .

وقال عمرو بن عبد الملك الوارق^(٢) :

أرى قلبي قد حنا إلى دير مريخنا
إلى ظبي من الأنس يصيد الأنس والجنا
إلى أحسن خلق الله إن قدس أو غنا
فلما دارت الكأس أدرنا بيننا لحنا
ولما هجع السما رُ نمنا وتعانقنا^(٣)

دير مرمار

كان جنوب سامراء و حوله كروم و شجر ، و كان من المواضع النزهة
و البقاع الطيبة الحسنة .

و للفضل بن العباس بن المأمون فيه أبيات منها :

(١) الديارات ص (١٢٢) ، و معجم البلدان (٤ : ١٤٢) .

(٢) قال الشابستي : و كان عمرو هذا من الخلاء المجان ، المنهمكين في البطالة و الخسارة
و الإستهتار بالمرء و التطرح في الديارات .

(٣) الديارات ص (١٤٩ - ١١٠) ، و معجم البلدان (٤ : ١٧٩) .

أنضيت في سر من را خيل لذاتي
ونلت فيها منى نفسي وشهواتي
عمرت فيها بقاع اللهو منغمساً
في القصف ما بين أنهار وجنّات
بدير مرمار إذ نحي الصبوح به
ونعمل الكأس فيه بالعشيات
بين النواقيس والتقديس آونة
وتارة بين عيدان ونايات
وكم به من غزال أغيد غزل
يصدنا باللحاظ الباليات

و ذكر الفضل هذا ، أنه خرج ذات يوم مع المعتز ، و يونس بن بغا للصيد فانقطعوا عن الموكب ، و شكا المعتز العطش ، فأرشدهم الفضل إلى هذا الدير فصاروا إلى الديراني فرحب بهم و سقاهم و أطعمهم .

قال الفضل : فسألني الديراني عن المعتز و يونس بن بغا ، فقلت : هما فتيان من أبناء الجند . فقال : بل مفلتان من أزواج الحور . فقلت : هذا ليس من دينك و لا اعتقادك ! قال : هو الآن من ديني ! فضحك المعتز . فقال لي المعتز قل له ، بينك و بينه : من تحب أن يكون معك من هذين و لا يفارقك ؟ قال : فقلت له ، فقال : كلاهما و تمرا^(١) ، فضحك المعتز حتى مال من الضحك ، فقلت للديراني : لا بد من أن تختار . فقال : الإختيار في هذا دمار ما خلق الله عقلاً يميز بين هؤلاء ... الخ^(٢) .

(١) مثل عربي قديم (مجمع الأمثال للميداني ٢ : ٦٥) .

(٢) راجع الديارات ص (١٠٤ - ١٠٥) ، و الأغاني (٨ : ١٧٩) .

دير العذارى (١)

يقول الشابشتي: وإنما سمي بدير العذارى لأن فيه جوار متبتلات عذارى، هنّ سكانه وقطانه فسّمّي الدير بهن .

وروى ياقوت الحموي: (أن جماعة من اللصوص مرّوا عليها ليلاً، وشدّوا القس وثاقاً لينيكوا الراهبات الأبرار، وإذا بهنّ ثياب كلهنّ قد فرغ القس منهنّ، قبلهم فقالوا فيهنّ:

و دير العذارى فضوح لهن وعند القسوس حديث غريب
خلونا بعشرين صوفية و نيك الرواهب أمر غريب

وفي الديارات: فقال بعضهم في ذلك:

و ألو ط من راهب يدّعي بأنّ النساء عليه حرام
يحرّم بيضاء ممكورة^(٢) و يغنيه في البضع عنها غلام

إلى آخر الأبيات ...

دير باشهرا

قال الشابشتي: (وهذا الدير على شاطئ دجلة، بين سامراء و بغداد، وهو دير حسن، عامر، نزه كثير البساتين و الكروم. وهو أحد المواضع المقصودة و الديارات المشهورة، و المنحدرون من سر من رأى و المصعدون إليها ينزلونه. فمن جعله طريقاً، بات فيه و أقام به إن طاب له. و من قصده أقام الأيام في الدّ

(١) كانت من ناحية دجيل، قال الشابشتي: و هو دير حسن حوله البساتين و الكروم، و فيه جميع ما يحتاج إليه. و لا يخلو من متنزه يقصده للشرب و اللعب. راجع الديارات ص (١٦٩ - ٧٠)، و معجم البلدان (٤: ١٥٧)، و في عيون الأخبار (٤: ١١٢)، و المسالك ص (٢٦٠ - ٢٦١).

(٢) الممكورة المستديرة الساقين.

عيش وأطيبه، وأحسن مكان وأترهه .
ولأبي الميناء^(١) فيه ، وكان نزله وأقام به أياماً ، واستطابه وقال فيه
أبيات :

نزلنا دير باشهرا على قسيه ظهرا
وطاب الوقت في الدير فرابطنا به عشرا
وسقينا به الشمس^(٢) وأخدمنا به البدرا
ونلنا كل ما نهوا ه من لذاتنا ، جهرا
فتكنا وتهتكنا ومثلي هتك السترا
وقد ساعدنا ربا ن طوعاً منه ، لا جبرا
إلى آخر الأبيات

دير احويشا

كان بديار بكر ، وكان يحمل خمرة إلى ما حوله من البلدان لجودته^(٣) ،
وكان الخلاء والمتطربون أغلب عليه من أهله وللبادي الشاعر^(٤) فيه أبيات
منها :

نؤم بدير احويشا غزالا غريب الحسن كالقمر اللياح^(٥)

(١) هو محمد بن أبي القاسم التمامي ، مات سنة ٢٨٢ هـ . راجع الديارات ص (٥٢ - ٦٥) .
(٢) قال الدكتور مصطفى جواد لعل الأصل (وسعينا به الشمس) ، وهذا كناية عن جمال
الخدوم . أقول : لعل الناظم يشبه الخمرة بالشمس في إشعاعها فيكون كناية عن الخمر ويقصد
أنهم قد سقوه خمراً .

(٣) معجم البلدان (٤ : ١٢١) ، والديارات ص (١٢٧) .

(٤) هو أبو بكر أحمد بن محمد كان من ذوي المجانة والخلاعة .

(٥) اللياح : الأبيض الناصع .

نزلنا منزلاً حسناً أنيقاً بما نهواه معمور النواحي
و ساعفنا الزمان بما أردنا فأبنا بالفلاح وبالنجاح

دير الطور (١)

في الديارات و حوله كروم تعصر ، فالشراب عندهم كثير ،
و الناس يقصدونه من كل موضع فيقيمون به و يشربون فيه ، و لمهلل (٢) فيه
أبيات منها :

نهضت إلى الطور في فتية
سراع النهوض إلى ما أحب
أنخت الركاب على ديره
و قضيت من حقه ما يجب
و أحضرتهم قمراً مشرقاً
تميل الغصون به في الكتب
إلى آخر الأبيات ...

دير الروم ببغداد

و كان مدرك بن علي الشيباني يطرق هذه البيعة في الآحاد و الأعياد للنظر
إلى من فيها من المردان ، و الوجوه الحسان من الشامسة و الرهبان ، في خلق

(١) الديارات ص (١٣٢ - ١٣٣) ، و معجم البلدان (٤ : ١٥٢ - ١٥٣) .

(٢) هو مهلهل بن يموت بن موسى بن حكيم ، و كان من شعراء القرن الرابع الهجري ، قال
الشابستي : (و كان المهلهل من المطبوعين في الشعر ، و المنهمكين في الخلاعة و اللعب
و التطرح في مواطن اللهو و الطرب ، ملازماً للحنان و الديارات) .

ممن يقصد الموضع لهذا الشأن .

و مما قال فيه :

ريـم بدير الروم قتلي بمقلة كحلاء لا عن كحلي
و طرة بها استطار عقلي و حسن دلّ و قبيح فعل^(١)

دير الزندرود

كان بالجانب الشرقي من بغداد ، و أرضها كلها فواكه و أعناب و هي من أجود الأعناب التي تعصر ببغداد ، و قال جحظة فيه :

سقياً و رعيّاً لدير الزندرود و ما
يحوي و يجمع من راح و ريحان
دير تدور به الأقداح مترعة
من كف ساق مريض الطرف و سنان
و العود يتبعه ناي يوافقه
و الشدو يحكمه غصن من البان
و القوم فوضى ترى هذا يقبل ذا
و ذاك إنسان سوء فوق إنسان^(٢)
إلى آخر الأبيات ...

(١) الديارات ص (٢١٥) ، و معجم البلدان (٤ : ١٤١) .

(٢) الديارات ص (٢١٥ - ٢١٦) ، و معجم البلدان (٤ : ١٤٣ - ١٤٤) .

دير الخوات (١)

قال الشابشتي : (دير كبير عامر يسكنه نساء مترهبّات ، متبتّلات (٢) فيه . وعيده الأحد الأول من الصوم . يجتمع إليه كل من يقرب منه من النصاريّ و المسلمين ، فيعيّد هؤلاء و يتنزّه هؤلاء . وفي هذا العيد ليلة الماشوش ، وهي ليلة تختلط النساء بالرجال (٣) ، فلا يرد أحد يده عن شيء ، ولا يرد أحد أحداً عن شيء . وهو من معادن الشراب ، و منازل القصف (٤) ، و مواطن اللّهُو) .
هل يدعوا الدكتور الوردى إلى الحياة في مجتمع كهذا ليعيش الإنسان حراً طليقاً ، فلا يصاب بمرض ازدواج الشخصية - أم الأمراض الاجتماعيّة - ؟ (٥) .

دير زرارة

كان بالقرب من الكوفة على طريق بغداد . قال الشابشتي : (وهو موضع نزه حسن ، كثير الحانات و الشراب ، لا يخلو ممّن يطلب اللّعب و اللّهُو و يؤثر البطالة . و هو من المواطن المستصلحة لذلك) .
قال : خرج يحيى بن زياد (٦) و مطيع بن أياس (٧) حاجّين ، فلما قربا من

(١) الخوات تحريف الأخوات ، و المقصود منها الراهبات . و كان هذا الدير بعكبرا ، و تلول عكبرا لا تزال موجودة في الجنوب الشرقي من بلدة سميكّة الحاليّة . (الديارات ص ٢٢٩) ، و معجم البلدان (٤ : ١٣٦ - ١٣٧) .

(٢) متبتّلات أي تاركات للزواج ، و متقطعات عن الدنيا إلى الله .

(٣) الديارات ص (٦٠ - ٦١) ، و يقول الأستاذ كوركيس و في « ليلة الماشوش لحبيب الزيات ، و الديارات النصراية (١٠٩ - ١١٢) » ما يدحض هذه التهمة .

(٤) القصف . الإقامة في الأكل و الشرب و اللّهُو . صوت المعازف . الإعلان باللّهُو .

(٥) راجع (شخصية الفرد العراقي) للدكتور الوردى ص (٢٠ - ٦٠) .

(٦) هو يحيى بن زياد الكوفي ابن خال أبي العباس السفاح . و كان شاعراً ماجناً .

دير زرارة ، قال أحدهما لصاحبه : هل لك أن تقدم أثقالنا ونمضي إلى زرارة ،
فنشرب في ديرها ليلتنا ، و نتزود من مردها و خمرها ما يكفيننا إلى العودة ، ثم
نلحق بأثقالنا ؟ ففعلا . و سار الناس ، و أقاما ، و لم يزل ذلك دأبهما إلى أن إنصرف
الحاج ، فحلقا رؤسهما و ركبا بعيرين و دخلا مع الحاج ، فقال مطيع :

ألم ترني و يحيى إذ حججنا و كان الحج من خير التجارة
خرجنا طالبي حج و دين فمال بنا الطريق إلى زرارة
فآب الناس قد غنموا و حجوا و أبنا موقرين من الخسارة
و قال أبياتا منها :

و صاحبنا بها ديراً و قسيساً و خمّاراً
و ظبياً عاقداً بين الند سقا و الخصر زناراً
شرحنا لك أخباراً و أدمجناك أخباراً^(٨)



لقد ذكرنا بعض الديارات المسيحية في العصر العباسي ، و أشرنا إلى بعض
ما كان يجري فيها . فماذا كان يجري فيها ؟
يقصدها الناس من كل موضع^(٩) ، و يتطرح فيها أهل البطالة و الخلاعة^(١٠)
و يجدون فيها ما يطلبون^(١١) فهي من مواطن القصف و اللّهُو^(١٢) و الشراب عندهم

(٧) كان مطيع بن أبياس الكوفي شاعراً خليعاً ماجناً .

(٨) راجع الديارات ص (١٦٥ - ١٦٢) ، و الأغاني (٣ : ٤١) .

(٩) راجع قبله دير الطور ص ٤٣ ، و دير الخوات ص ٤٥ .

(١٠) راجع قبله دير الجائليق ص ٣٧ ، و دير قوطا ص ٣٨ .

(١١) راجع دير الخوات ص ٤٥ .

(١٢) راجع قبله ص ٤٣ .

كثير^(١)، و يحمل خمره إلى ما حوله من البلدان^(٢) فالدير مآلف الضلال و محل كل غزاة و غزال^(٣).

و القوم فوضى ترى هذا يقبل ذا و ذاك إنسان سوء فوق إنسان و قد يقصده طارق ليقبى به ظهراً، فيربط به عشراً، و يساعده ربانه طوعاً لا جبراً^(٤)، و آخران يذهبان إلى الدير ليتزودا من مردها و خمرها ليلة واحدة ثم يلحقا بركب الحاج، و إذا بهما يرباطان به موسم الحج كله^(٥).

هذه هي الديارات المسيحية في العصر العباسي: خمر، و مرد، و ناي، و عود.



قد لا يستطيع الإنسان من مخالفة الطبيعة في حياته و إن أعلن ذلك، فيخضع للطبيعة سراً، إن خالفها جهراً. و ذلك أمر موافق للطبيعة. و لكن ليس من الأمر الطبيعي أن تنقلب الديارات التي شيدت للعبادة و الإنقطاع إلى الله، و للتبتل و الترهّب، إلى معاصر للخمر، و أماكن للقصف، فيجد الخلاء و الماجنون فيها كل ما يشتهون، حتى يأتي ذكرها مرادفاً للحنانات و المواخير!!!

إنّي أشك أن يكون هذا أمراً طبيعياً، بل أراه أمراً أحكم تدييره، و الذين ذكروا الديارات لم نجد عندهم شيئاً يكشف لنا عن هذا الغموض. فإنّ قسماً منهم قد اثبت ما وقع في الديارات فكاهة و تظرفاً فحسب.

(١) راجع قبله دير الطور ص ٤٤، و دير الزندرود ص ٤٥، و دير زرارة ص ٤٦.

(٢) راجع قبله عمر الزعفران ص ٣٩.

(٣) راجع قبله دير الثعالب ص ٣٧.

(٤) راجع قبله ص ٤٣.

(٥) راجع قبله دير زرارة ص ٤٦.

و قابل هؤلاء جرجي زيدان ، فوصف لنا الديارات بغير نعتها ، و خلق المناسبات في قصصه للإشادة بذكرها ، فكأن الغاية من وضعه القصص التي كتبها بإسم التاريخ الإسلامي بثّ الدعاية للديارات المسيحية ، و قد برع في وصفها بالروحانية المحضة ، و لعلك لا تجد في كل ما كتب شيئاً من الحوادث الواقعة في الديارات في مؤلفاته . فهو إذن لم يكن مؤرخاً محايداً ، يبحث عن الحقيقة و التاريخ فيما يكتب ، بل هو داع من دعاة الأديرة .

لم نجد من يكشف لنا الغموض في أمر الديارات ، و يشير إلى سبب إنقلابها إلى حانات و مواخير في ذلك العصر ، مما لا نجده في عصرنا الحاضر و لا في سائر العصور .

و إنني أشك في الأمر !! و لعل السياسة هي التي أفسدت الأديرة في ذلك العصر خاصة . فالمتتبع للتاريخ يرى العباسيين منصرفين إلى شن الحروب على الروم المسيحية صيفاً و شتاء ، و كان طبيعياً أن يؤثر في هؤلاء الغزاة حياة الخلاعة و المجون ، و تلهيهم عن الجد في الحرب ، و أنت ترى في مرتادي تلك الأديرة ، الخلفاء ، و الأمراء ، و الولاة ، و الندماء ^(١) ، و ترى أن تلك الأديرة كانت منتشرة في كل موضع من البلاد ، مما كان يساعد سكانها على الاطلاع على أسرار المملكة الإسلامية المترامية الأطراف ، و حركات الجيش فيها . كل ذلك يحملنا على الشك و الريبة في أمر تلك الأديرة ، و أن نرى أن سياسة الدول المسيحية هي التي أفسدتها ، و دسّت بين أهلها من قلبها إلى مواخير و حانات ، تفسد المجتمع الإسلامي .

و مهما نشك في الأمر فلا نشك في أن تلك الأديرة قد ساعدت على إنتشار أنواع الفسق و المجون بين المسلمين ، بما فيها اللواط ، و دعانا ذلك إلى أن نرى

(١) في الديارات ص ١٣٩ عن دير زكي (و كانت الملوك إذا اجتازت به نزلته و أقامت فيه) . و في عمر يونان ص (١٦٦ - ١٦٧) منه . و كذلك دير الأعلى بالموصل ص ١١٢ من الديارات ، و كذا غيرها من الأديرة .

فيها سبباً ثانوياً لانتشار هذا الانحراف الجنسي في ذلك العصر، إن لم نعدده السبب الأول.

بعد انتهائنا من بحث أسباب انتشار الشذوذ الجنسي في بلادنا، نقول :
إنّ الانحراف الجنسي ليس منحصرأً بالمسلمين و ملازماً للحجاب ، كما يدّعيه الدكتور الوردى ^(١) ، بل إنّ الشذوذ الجنسي يمتد إلى جميع العصور .
ينقل الدكتور فخري المصري في كتابه الضعف التناسلي ^(٢) ، إنّ جيته ، الشاعر الألماني الشهير ، كتب : (عمرت اللوطة ما عمرته البشرية) .

و يقول الدكتور فخري عن اليونانيين : إنّ تاريخهم منعس في اللوطة و اللوطة متجسمة فيه ، فإنه لم تكن المرأة لديهم خليقة بالتمتع بها ، إلا في حالات نادرة . و إنّ متشرعهم العظيم سولون ، نادى بمعاقة اللوطة بين الأسرى لأتّهم أحقر من أن يرتفعوا إلى ذلك .. الخ .

و عن الرومانيين يذكر قصصاً في ذلك ، كالقيصر نيرون ، الذي اتخذ الصبي (سورس) معشوقاً له .. الخ .

و يقول عن الفينيقيين أنّها كانت منتشرة بينهم ، و خصوصاً وسط صبيان المسارح ، و أماكن التسلية ، كالمراقص و غيرها ، و انتقلت إلى مستعمراتهم ، ثم يذكر بعض قصصهم .

و يقول : و في الصين و اليابان توجد منازل للسبغاء مع الذكور ، و كانت منتشرة عندهم منذ قديم الزمان ، و جائزة لديهم ، و منتشرة في عهد (١٢) قيصر من قياصرة الصين ، و العاصمة بكين كانت مركز نشرها ، و المسرح كان مركز تجنيد الصبيان لها ، و كان الأهالي يكتسبون من تقديم أولادهم إلى منازل خاصة بذلك .

و إنّ أفريقيا الشمالية و الجنوبية لا تختلف عن أوروبا و مصر .

(١) وعاظ السلاطين ص ٨ و ٩ .

(٢) نقلت ملخصاً من ص (١٣٥ - ١٣٩) .

وفي سائر أفريقيا والجزائر مثل (يونيو)، و (مدغشكر)، و (سوماطرا)،
و (جاوا) تجدها منتشرة لدرجة تجعل البغايا يحقدن على الصبيان .

وفي استراليا و امريكا الشمالية حالهم كحال أوروبا . وينقل في بيان
إنتشارها عند قدماء المصريين عن المجلة الشهرية للأمراض الجلدية ^(١) : (أن
وجدت بردية (بايروس) ترجع إلى ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، و بها اللواطة لم تكن
منتشرة فقط بين المصريين ، بل و بين الآلهة أيضاً) ^(٢) .

أما عند العرب الجاهليين فكان ذو شناتر يطالب أبناء الملوك بما يطالب به
النسوان ، و أظهر الفسق باليمن حتى قتله ذو نواس ^(٣) .

و أن الكتب الدينية تحكي عن أهالي قرية سدوم ^(٤) ، أنهم حين جاؤا إلى
لوط ليأخذوا ضيفيه (كما في التوراة ، الإصحاح ١٩ من سفر التكوين) فخرج
إليهم لوط إلى الباب و أغلق الباب وراءه ، و قال : لا تفعلوا شراً يا أخوتي هو ذالي
إنتان لم تعرفا رجلاً أخرجهما إليكم ، فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم . و أما
هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً ، لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي فقالوا ابعد
إلى هناك) .

و يقول القرآن الكريم : « وَ جَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي
أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حقٍّ و إنك لتعلم ما
نريد ^(٥) » .

و في سورة أخرى : « أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَ تَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ

(١) Monatschr .F. prakt. Dermatol. bd. 29 , 18 , 99 Nr 9 , S , 409

(٢) إنتهى ما نقلناه عن كتاب الضعف التناسلي ص (١٣٥ - ١٣٩) .

(٣) مروج الذهب للمسعودي (٢ : ٦) ، و الكامل لابن الأثير (١ : ١٤٩) .

(٤) سدوم : هي سمرين بلدة من أعمال حلب . معجم البلدان (٥ : ٥٤) .

(٥) هود : ٧٨ - ٧٩ .

رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ» (١).

قرأنا عن الأمم القديمة فرأينا المترفين ، كما أخبر التوراة و القرآن ، إنما مالوا إلى الشذوذ الجنسي ، لا لقصورهم عن نيل المرأة ، وإنما كانوا يتركون المرأة و يطلبون الذكران .

الشذوذ الجنسي في أوروبا

يقول الدكتور فخري في ص ١٧١ من كتابه الضعف التناسلي : (توجد في أكثرية عواصم البلدان الأوربية نواد و جمعيات خاصة باللوامة) . وفي ص ١٧٢ منه : (وإذا كانت العواصم الأوربية كلها تقريباً مصابة بهذا الشذوذ التناسلي ، فإنَّ «برلين» و «لوندرة» و «باريس» تحمل لواء الزعامة بهذا الشذوذ) .

و ينقل عن بلوخ الباحثة التناسلي الألمانية أنه قال في الفصل التاسع عشر (لغز اللوامة) من كتابه (*Das sexuelleben unserer zeit, J.Bloeh Berlin (1909)*) (إنَّه ممَّا لاشكَّ فيه أنَّه لا توجد تشكيلات إجتماعية للمصايين باللوامة في مدينة مثل ما لها في برلين) .

وقد ذكر بلوخ ، في نفس الفصل من كتابه ، أسماء أماكن يتخذها المصابون باللوامة للتنزّه و الفسحة و المقابلة في عاصمة المانيا ، و أهم هذه الأماكن *Friedrichs Trasse* ، و هو أهم شارع يخترق برلين ، و *passge* ، و هو ممر يوصل أهم ميدان في برلين بالشارع المذكور ، و هذا الممر يزدحم بالمارة ، و *Tiergarten* ، و هي الحديقة التي يحتضنها برلين . و أما باريس الحديثة فهناك في غابة (بلونيا) تكثر الآن إجتماعات المصايين بها .

و أما في باريس التاريخية ، فكانت أماكن متعددة يتقابل فيها المصابون

(١) الشعراء : ١٦٥ - ١٦٦ .

بها، وكانت توجد (منازل لبغاء الذكور)، وكان يوجد منزل في (*Rue du Doyenne* *de Paris*) معد لبغاء الذكور منذ سنة ١٨٢٠م إلى سنة ١٨٢٦م، وكانوا يفحصون القاطنين فحصاً طبيياً لوقاية الزائرين ضد الأمراض التناسلية، وكان يوجد منزل آخر في (*Rue des Marais*) .

و توجد في لندن، في حديقة هايد بارك، نفس العلاقات المذكورة لحديقة برلين الكبرى، و تكثر حول القشلاقات العسكرية، و في الحي الشرقي (ايست ايند) تكثر هذه العلاقات الشاذة، كما توجد في الحي الغربي . و ما ذكرنا عن العواصم ينطبق على أكثرية العواصم الأخرى .

بعد ملاحظة ما لخصناه هنا من كتاب الضعف التناسلي ص ١٧٠ - ١٧٤ ، نعلم أنّ الأزهرى الذي ذهب إلى باريس سنة ١٨٢٦م، و نفى وجود الشذوذ الجنسي هناك، كانت ملاحظته سطحية كملاحظة دكتورنا الوردى في قوله : (إنّ المجتمع الذي يشتد فيه حجاب المرأة يشتد فيه، في نفس الوقت، الانحراف الجنسي، من لواط و سحاق و ما أشبهه، و قوله : (و يبدو أنّ وعاظنا يستسيغون الانحراف الجنسي بين الناس، و لا يستسيغون انتشار السفور، و لعلنا لا نغالي إذا قلنا أنّ الانحراف الجنسي منتشر بين الوعاظ أكثر من انتشاره بين غيرهم ^(١)) . إذا بلغ هذا الكلام أجنياً عن بلادنا ألا يتصور أنّ السحاق بين نساء المسلمين أكثر من غيرهن، و أنّ البغاء بالذكور أكثر انتشاراً بين رجال المسلمين، و خاصة بين طبقة الروحانيين من جميع رجال العالم . و ذلك بشهادة أستاذ علم الاجتماع الذي قد أطلع على الحياة الغربية و تخرّج من جامعتها، و هو ابن الشرق !!! ألا يحق للأجنبي عنا أن يرى في كلامه حجة علينا؟ و كذلك الأمر عند شبابنا الذين يتخرّجون عليه أو يطالعون كتابه !

(١) وعاظ السلاطين ص ٨ و ٩ .

يقول الأستاذ عوني وفا الدجاني (١) : إنَّ الإنسان يميل إلى أفراد جنسه
بعده من أفراد الجنس الآخر ، كما يحصل عادة بين الجنود ، و البحّارة ، و تلامذة
المدارس .. الخ .

و هذا أمر طبيعي ، غير أنّه في الأوساط الدينية أنّ شدة تمسك المستدين
بدينه و محافظته على تقاليدہ تمنعانه عن إقتراف أمثال هذا الإثم ، و إذا شدّ واحد
و عرف إرتكابه هذا الإثم ، عند ذاك يهان الآثم ، و ينتشر أمره ، و يستهجن فعله ،
و يشنع عليه ، حتى يلتجئ أحياناً إلى الهجرة من مجتمعه .
و في غير الأوساط الدينية لا يعبأ بمثل ذلك ، و يهمل أمره و لا
يذكر فلا يشتهر .

* * * *

قد أطرى الدكتور الوردى و أثنى على حسن تربية الطلاب في المدارس
الغربية (٢) ، ولكن البروفسور بركس (٣) يقول عن فساد أخلاق الطلاب في
أمريكا بعد سؤاله عن ٤٥٥ فتاة و فتى عن الأمور الجنسية :
(لو قارنتم سلوك الشبان قبل ٢٥ سنة ، و تفكيرهم بما هم عليه اليوم ،
لاطلّعتم على انحدار الإجتماعات البشرية إلى الحضيض المهلك من الفساد) .
ثم يذكر نموذجاً من أجوبة الطلاب و الطالبات على أسئلته . و في بعضها ما
شرحته إحدى الطالبات من كيفية تعرّض الطلاب المستهجن للطالبات ،
و ملاحظتهن في الخلوات ، و استهزاء الطلاب بالفتاة الأبيّة الممتنعة . ثم تحدث
عما جرى بينهم مساءً عندما داهمهم الظلام في إحدى نزهاتهم المدرسية .
و آخر يتحدث عن مغازلات الطلاب خلال أشجار الحدائق .. الخ . ثم

(١) أستاذ علم النفس الجنائي بكلية الحقوق سابقاً ، في القسم الأول من كتابه علم النفس
الجنائي ص ١٩٥ .

(٢) وعاظ السلاطين ص ١٥ - ١١ .

(٣) أستاذ أونيوورسته بشيكاغو في العدد ٧٣ من مجلة خواندنيها الإيرانية سنة ١٥ ص ٣٣ .

يقول (قبل ٢٥ سنة كانت نسبة قصص الغرام بين الشبان ٥% إلى ١٠%، ولكن اليوم لا حدّ لما يرتكبه الشباب بلا قيد ولا شرط، وقد يتخذ الفتى الواحد عدداً من العشيقات، و تتخذ الفتاة عشاقاً عديدين).

إنّ هذا الفساد الاجتماعي يزداد إنتشاراً يوماً بعد يوم، والأولياء لا يعيرون إهتماماً بذلك، لأنّهم يرون (أنّ الشبان يلزمهم أن يتعلموا البيولوجيا).

(أنّ الشبان قبل ٢٥ سنة كانوا قد تعلموا (البيولوجيا)، و الفساد لم يكن منتشرأً كإنتشاره في هذا اليوم).. الخ.

قال المؤلف في ص ٩: (ظنّ و عاظنا أنّهم يستطيعون أن يمنعوا الإنحراف الجنسي بواسطة الكلام و النصيحة وحدها، غير دارين بأنّ الإنحراف طبيعة إجتماعية لا بد من ظهورها في كل بلد يحجب النساء فيه عن الرجال).

إنّ الوعاظ لم يحاولوا (أن يمنعوا الإنحراف الجنسي بواسطة الكلام و النصيحة وحدها)، بل إنّ الواعظ الأكبر (ص) قد سهّل في شريعته أمر الزواج، و جوّز الطلاق فيما إذا لم يتفق الزوجان، و بذلك حفظ للطبيعة البشرية حقّها في التمتّع بالغريزة الجنسية، و بالحجاب وضع حدّاً للمنجرفين وراء الشهوة الجنسية بلا قيد و لا شرط.

و قد يكون الإنحراف طبيعياً (في كل مكان، يُترك الإتّصال الجنسي الطبيعي فيه) كالراهبات و الرهبان في الأديرة.

و لكنه ليس طبيعياً (في كل بلد يحجب النساء فيه عن الرجال)، و يفسح لهم في الزواج، إلاّ إذا كان علاج مرض الإنحراف في الرجال منحصرأً بمغازلة أية إمراة شأوا، و في النساء بمراودة أي رجل يهوينه، فإنّ الحجاب يمنع عن ذلك. و إن كان العلاج منحصرأً بذلك، فإنّي أنصح هؤلاء المرضى أن يذهبوا إلى مستشفى (كوپا)، و يعالجوا أنفسهم باستعمال دواء (لعبة المفاتيح)^(١).

(١) راجع قبله ص ١٩ من هذا الكتاب.

نتيجة البحث

ليس هناك ترابط بين الحجاب و الانحراف الجنسي ، و لا تلازم بين السفور و السلامة من الانحراف . فإنّ الحجاب قد اشتد في السنة الخامسة من الهجرة ، و الانحراف قد ظهر في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري . و قد استطاع الإسلام أن يكافح الشذوذ الجنسي بين تابعيه زهاء قرن و نصف قرن كما فعلت المسيحية في فجر تاريخها (١) .

و كان سبب إنتشار الانحراف بين المجتمع الإسلامي تفككه المترفين من الطبقة الحاكمة آنذاك بهذه المتعة الجنسية ، و تقليد الشعب إيّاهم في ذلك بعد أن ضعف الوازع الديني لدى الجميع .

و قد ساعدت الديارات على إنتشار هذا الشذوذ و غيره من أنواع التفسخ الخلقي . و لعل السياسة الرومانية هي التي أفسدت الديارات لإفساد المجتمع الإسلامي .

أما التغزّل بالغلمان ، فلعلّ الشاعر العربي قد تأثر بالأدب اليوناني في ذلك . فإنّا نعلم أنّ حركة ترجمة الكتب اليونانية إلى اللغة العربية كانت قوية في أوائل العصر العباسي حتى عصر المأمون .

يقول الدكتور فخري في ص ١٣٥ - ١٣٦ من كتابه الضعف التناسلي :

(إنّ اللّواطة كانت ظاهرة في «ميتولوجيا» اليونان ثم انحدرت من الميتولوجيا إلى تاريخ الشعب ، و تسربت إلى أعماق أركان حياته السياسة أو الأدبية أو الفنية ، فمن أبداع تاريخ اللواطة في الميتولوجيا ، هو تعشّق (زيوس) لابن الملك ، الذي كان يسمى (جانيميديس) ، و قصة هذا العشق تجسّمت في كثير من أدبيّات و فن اليونان الأقدمين . و تطوّرت فكرة اللّواطة عندهم ، فصاروا

(١) يقول الدكتور فخري في ص ١٤٥ من كتابه (الضعف التناسلي) : خفّ إنتشار اللّواطة في أوروبا بتأثير المسيحية .. الخ .

تتعشّقونها تحت ضوء أشعة الحب النقي وأشعة الدين ^(١)، فكان العاشق يرى في الصبيّ المعشوق مخلوقاً يسليّه، و خلاصة القول تمتزج روحاهما قبل أن يمتزج جسدهما في اللذة التناسلية البهيمية، مع ضرورة الحصول على اللذة طبعاً، والسّرّ في ذلك، هو أنّ اليونانيين كانوا ينظرون للمرأة كشخص أقلّ روحانية وأحطّ نفساً من الذكور، وكانوا لذلك يعتقدون أنّ جمال الذكور أبداع وأدقّ تركيباً وأبداع تنسيقاً من جمال الإناث، فللمعاشرة وجدوا الذكور أفضل من الإناث، وللمغازلة والمجالسة والمحادثة وجدوا الذكور أفضل من الإناث، ولبت مكتومات الصدور - وهو الشيء الذي يحتاج إليه الإنسان دائماً وفي كل العصور - وجدوا الذكور أفضل من الإناث، وأخيراً للتمتّع الجنسي، وجدوا الجمال في الذكور أعظم منه في الإناث، فانتشرت اللواطه بينهم، ثم تجسّمت في أغانيهم وفي شعرهم وفي سياستهم وفي قوانينهم) .. الخ.

كان كل هذا يترجم ويقدم للخلفاء والوزراء والأمراء في مقابل هبات جزيلة، وكان القوم يُكبرون اليونانيين و يبجلون علومهم، وكان من الطبيعي أن يتأثروا بهم، فيرغب الأمير في هذه المتعة، ويحاول الأديب أن يترسّم خطاهم في نثره ونظمه، فكما أنّ العقائد المتضاربة قد إنتشرت بين المسلمين حينذاك على أثر إنتشار الكتب الأجنبية، فانقسم المسلمون إلى أشاعرة، ومعتزلة، ومرجئة، وقدرية ... الخ، وحاول كل فريق أن يوقّق بين القرآن والسنة وما يتّبعه من رأي، ونتج من ذلك تبليد الأفكار، وانتشار الزندقة، وكفر المسلمون بعضهم بعضاً. كذلك أجوز أن يكون إنتشار الإنحراف الجنسي بين الطبقة الحاكمة، من أمراء ووزراء وكتّاب وأدباء وندمائهم، نتيجة لانتشار تلك الكتب بينهم، وهذا رأي أرتأيته وعليّ تبعته وحدي.

وكذلك شأننا اليوم مع الثقافة الأوربية، فمنها جاءتنا الآراء المتضاربة من ديموقراطية ونازية وشيوعية، ومن أوربا جاءتنا المسارح والمراقص والتعرّي

(١) ولعلّ هذا هو مصدر شطحات بعض الصوفية وادعاء العرفان في تغزّلهم بالعلمان.

والتبرّج ، وأخيراً التّفسّخ الخلقي بأنواعه . وأخذ دعاة المدينة الغربية ، ومروجوا آرائها ، يحاولون أن يوفقوا بينها وبين القرآن والسنة فلم يفلحوا ولم ينجحوا . وأنّ المسلمين لم يكونوا ليجتاجوا إلى النظم الاجتماعية والآداب الأجنبية في أي يوم كان ، و يكفيهم النظام الإسلامي ، و يكفل سعادتهم ، و يكفل سعادة البشر عامة .

وإنّما المسلمون يحتاجون إلى الاستفادة من إختراعات الغرب - و غير الغرب - من إختراعات و صنائع و علوم ، و كل شيء يحسّن وسائل العيش ، ما عدا النظام الاجتماعي .

يقول المؤلف : (إنّ القدماء كانوا يتصورون بأنّ الإنسان حر عاقل مختار . فهو في رأيهم يسير في الطريق الذي يختاره في ضوء المنطق و التفكير المجرد . ولهذا أكثروا من الوعظ إعتقاداً منهم بأنّهم يستطيعون بذلك على تغيير سلوك الإنسان . لقد جرى مفكروننا اليوم على أسلوب أسلافهم القدماء ، لا فرق في ذلك بين من تتقف منهم ثقافة حديثة أو قديمة ، كلهم تقريباً يحاولون أن يغيّروا بالكلام طبيعة الإنسان)^(١) .

و قال في ص ٣٩ من خوارق اللاشعور : (و كذلك يعاقبون الجريمة بالعقاب الشديد ، على أساس أنّ الإنسان يرتدع عن الجريمة حين يرى العقوبة عليها شديدة ، ناسين أنّ الإنسان عندما يقترف الجريمة كثيراً ما يكون مسوقاً بعوامل غير واعية لا صلة لها ببراهين الفكر و المنطق) .

إنّ هذا الرأي نظير رأي الجبريّين من الأشاعرة ، الذي كان يتلخص في أنّ الإنسان غير مختار في كل ما يفعل . و الفرق بين الجبري الأشعري و الجبري العصري ، أنّ الأول كان يقول : إنّ الله تعالى هو الذي يدفع الإنسان إلى مصائر ليست من ذات يده . و أما الأخير فيرى أنّ الغرائز البشرية هي التي تدفع الإنسان إلى الإجرام .

(١) وعاظ السلاطين ص ٦ - ٧ .

و نحن لا ننكر بأنّ الإنسان ، عندما يقوم على عمل ، لا بد وأن تكون له دوافع من الشهوة أو الحسد أو الخوف أو غيرها . و لكننا نقول هل يستطيع الإنسان أن يخالف هذه الدوافع برادع من (العقل) إجتنباً للعقاب ، أو بدافع (الغيرية) تقديماً لمصلحة الغير ، أو ما شئت فسّمه فيترك العمل ، أم لا؟! .

يقول الحكيم الرومي في كتابه المثنوي ، في جواب هذه الشبهة ، ما ترجمته : (شبهة الجبري أشدّ فضيحة من شبهة القدري ، لأنّ الجبري ينكر إحساسه . إنّ قولك أفعل هذا أو أفعل ذلك ، هو دليل الإختيار يا صنم) .
و يروي لمؤمن الطاق (١) - و العهدة على الراوي - جواباً عملياً لهذه الشبهة .

يحكي عنه أنّه سمع يوماً أحد مخالفيه في الرأي من الأساتذة يحاضر تلامذته و يقول :

إنّي أعجب أشدّ العجب ممن يزعم أنّ الإنسان مختار في أفعاله ، مع أنّ الله تعالى هو الخالق لكل شيء ، و فاعل كل فعل . فلم يتمالك مؤمن الطاق نفسه ، فرفع حجراً من الأرض و صكّ به جبين المحاضر . و عندما سأله القاضي ساعة المرافعة عن سبب فعله أجاب مؤمن الطاق :

لست أنا الضارب .

القاضي : فمن الذي شجّ جبين الأستاذ و آدماه؟! .
مؤمن الطاق : إنّ الله هو الذي قد آدماه ، لأنّ كل فعل منه ، و أما أنا فلم أكن مختاراً في فعلي كما يزعم !
نعود الآن إلى ميزة العقل في الإنسان ، و نذكر على ، سبيل التمثيل ، من قصة حواء تقربها إلى الشجرة الممنوعة :

(١) مؤمن الطاق إسمه محمد بن علي بن النعمان الكوفي الصيرفي ، روى عن علي بن الحسين و ابنه الباقر و جعفر الصادق (ع) ، و لقد لقبه مخالفيه شيطان الطاق . راجع الكنى و اللقب للقمي (٢ : ٣٩٨) و تكملة الفهرست لابن النديم ص ٨ .

في قصة حواء ، أنّها لما تقدّمت إلى الشجرة الممنوعة عنها ، رجعت الملائكة الموكلة بحراسة الشجرة إلى ربها تسألها ، هل تمنع هذا المخلوق من التقرب إلى الشجرة كما تمنع سائر الحيوانات ؟ أم تتركه وشأنه ؟ فأجابها الله : إنّ لهذا المخلوق عقلاً يرشده فلا حاجة إلى إستعمال القوة لمنعه .

إنّما أوردت هذه القصة مثلاً يبيّن الفرق بين الإنسان و الحيوان ، فالإنسان و الحيوان يشتركان في جميع الخصائص و الغرائز ، و يفترقان في هذه الخصلة بصورة محسوسة ، فالإنسان يشتهي الأكل و النكاح و النوم ، و الحيوان يشتهيها ، و في الإنسان غريزة الغضب ، و ما ينتج عنها من كره و حقد و شراسة ، و فيه غريزة حب النفس و ما ينتج عنها من عدم إدراك مصلحة الغير و الخوف ، و في الحيوان جميع تلك الغرائز ، أنّهما يشتركان في كل ذلك ، و يمتاز الإنسان عن فصيلة الحيوانات بالعقل و التفكير ، فإن اتّبع عقله أصاب رشده ، و إلّا كان هو و الحيوان سواء .

و لقد اتخذت الفلاسفة و الحكماء - في توجيه البشر - من العقل سلماً لإصلاح الفرد الإنساني و مجتمعه ، فأشادوا بالعقل ، و درّبوا البشر على التأمّل و التفكير الصائب و عدم الإنسياق وراء الهوى و العاطفة .

أما الأنبياء ، و نخص بالذكر نبينا محمد (ص) ، فإنّهم قد خاطبوا البشر بلغة العقل و العاطفة معاً ، و بذلك وجهوا الناس إلى التفكير الصحيح ، كما نبّهوا فيه الأريحية و الغيرية ، و دفعوه إلى نكران الذات في سبيل المصالح الإجتماعية .

و أما القوانين الوضعية ، فقد اعتمدت على الزجر و العقاب في ردع المجرم أكثر من أي شيء آخر ، و لم يخل مجتمع بشري من واحدة من هذه الطرق الثلاثة ، فما هو الطريق الجديد الذي جاء به أستاذ علم الاجتماع ، حيث أخذ يندد بكل هؤلاء : القدماء منهم و المتأخرين ؟!! .

و هل الجديد الذي جاء به هو رأيه بأنّ في الإنسان غرائز طبيعية يجب الإعتراف بها ، و إعطاؤها حقها في الحياة ، فهذا ما لم ينكره أحد ، و لكن الكلام في أنّه هل يجب أن يوضع حد للبشر في سلوكهم ؟ أم لا ؟ بل يتكون فوضى لا

نظام لهم !! و إذا كان من الواجب وضع حد لهم في الإستفادة من غرائزهم . فهل يستطيعون من الوقوف عند حدهم ؟! أم لا يستطيعون ذلك ؟ و إذا كان الإنسان قادراً على الوقوف عند حده ، فإذا تجاوز ذلك الحد هل يسأل عن تجاوزه ؟ أم لا يسأل عنه ؟

أما نحن فقد ذكرنا أن في الإنسان قوتين متقابلتين : الأنانية و الغيرية ، و أن للإنسان قوة خارقة لتكييف نفسه . بتغليب بعض صفاته على البعض الآخر . و له عقل يميز به النافع من الضار ، فإن لم يكن الإنسان كذلك ، بل كان مجبوراً على أفعاله . غير عاقل و لا مختار ، و لا يردعه الجزاء عن إتيان المنكر - كما يفهم ذلك من أقوال المؤلف - ، فلم قامت المذاهب و الأديان ؟ و لماذا ظهرت النظم الإجتماعية و القوانين المدنية ؟ فليترك الناس فوضى لا نظام لهم كالحيوانات - و إن كان لبعض الحيوانات أيضاً نظام متبع - و إذا كان الناس لا بد لهم من دين سماوي أو قانون مدني ينظم حياتهم ، و يضع حداً لجموح غرائزهم ، فكيف يتم توجيههم إلى الأخذ به ؟! أيمن ذلك عن غير سبيل الدعاوة و التبشير له ؟ و باتخاذ كافة الوسائل لتركيـز النظام لديهم ، و بذلك يتكون عندهم عادات و تقاليد إجتماعية ، و هي ما يسميها المؤلف بـ (العرف الإجتماعي) ، و يهتم له كل الأهتمام .

و قد دأب البشر ، منذ فجر تاريخهم ، على بث الدعوة للنظام الإجتماعي الذي يدينون به ، فهل ينكر المؤلف على جميع البشر ذلك ؟!! و قد يفهم من مجموع كلام المؤلف أن القدماء ، و المتأخرين لم يعرفوا الإنسان - كما عرفه هو - ، و لم يدركوا أن الحسد و الشهوة و الأنانية أصيلة فيه ، و يقول :

(و لعلنا لا نخطيء إذا قلنا بأن الحسد و الشهوة و الأنانية و ما أشبه هي صفات أصيلة في الإنسان لا مفرّ منها) .
(فإذا قلنا للناس انبذوا الحسد و الأنانية ، فمعنى ذلك أننا نقول لهم : أتركوا طبيعتكم البشرية) .

فما هي هذه الصفات الأصيلة في الإنسان ، وما درجة تأثيرها فيه ؟
فالحسد : رغبة الحسود بأن يتنعم بنعمة المحسود أو إزالة تلك النعمة عنه .
و الأناية : رغبة الإنسان في تقديم مصلحته على مصلحة غيره لأنه يحب
نفسه أكثر من حبه الغير .

و الشهوة : الرغبة إلى الأكل و الشرب ، أو النوم ، أو إشباع الغريزة الجنسية ،
أو الجاه ، أو جمع المال لتحقيق رغائبه .

أجل إن هذه الصفات أصيلة في الإنسان ، كما يرى المؤلف ، و تقابلها
الصفات الغيرية الأصيلة فيه أيضاً . و لا يلام الإنسان على وجود هذه الرغبات
فيه ، و إنما قد يلام على كيفية تحقيق هذه الرغائب ، و من هنا تنشأ المغالطة ،
فيقول الدكتور : إن هذه الرغبات لا بد أنها تدفع الإنسان إلى العمل لتحقيقها ،
و ذلك أمر قهري لا اختيار للإنسان فيه ، و البشر في ذلك متساوون كأسنان
المشط . غير أن الوعّاظ لا يلومون الغني المترف على تحقيق رغائبه . و ها هنا
يجيد الرثاء للفقير . سيدي الواعظ العصري ، إن كان الوعّاظ السالفون يموّهون
على المترفين و يشجعونهم على التماذي في غيهم ، كما تزعمون ، و كانوا
يمدحونهم ليكسبوا بذلك ودهم ، فيحصلوا على الجاه و المال ، فإنكم قد ورثتم
عنهم تلك النزعة حذواً النعل بالنعل ، فإنهم إن كانوا يستشهدون بأحاديث
حفظوها و لم يعوها ليكسبوا الجاه و المال من أهليه ، كما تزعمون ، فما أنتم
تستشهدون بكلمات الغريبيين (أو الشرقيين) تطلبون بوعظكم و الأكثرية من
الشعب التي هي مصدر السلطات في هذا اليوم ، و نيل الجاه و المال متوقف على
كسب رضاهم ، و من بعد ذينك المال ، و نحن لا نريد أن نلوم أحداً على حب
الجاه و المال ، و إنما نلومكم على سلوك الطريق .

و لنعد الآن إلى الغرائز الطبيعية للإنسان فنلقي نظرة عابرة عليها .
فالحسد لا يكون غالباً بين الغني و الفقير ، حتى يزول إذا ساوينا بينهما .
فقد يكون منشأ الحسد وجود موهبة في المحسود قد جرم منها الحسود .
و كم يصادف لأخوين أو لتلميذين ، رزق أحدهما موهبة التصوير ، بينما حرم

الآخر منها . فهل يمكننا عند ذاك أن نأخذ نصفاً من موهبة المصوّر أو المفنّن ، ونعطيها للمحروم لتزيل حسده ؟ ، وفي مثل هذه الحال ، إذا اقتصر الأمر في الحسود على الرغبة بنيل الموهبة التي حرم منها ، فإنّ تلك الحالة تسمى لدى علماء الأخلاق بالغبطة ، وهي ليست بمذمومة ، وخاصة إذا أدت الغبطة إلى التنافس بينهما ، فللتنافس قيمته العملية في الحياة الإجتماعية ، فهو الأُس السليم للتقدم البشري ، ولولاه لما رأينا مواهب تتفوق ، وأخرى تنازعها هذا التفوق فينتهي إلى إيداع في الفكر والعمل .

أما إذا أدّى الحسد ، في التلميذ المحروم من الموهبة مثلاً ، أن يحمل في نفسه كره صاحب الموهبة ، فهذه الحالة مذمومة ، مردولة ، لأنّها قد تؤدي إلى محاولة القيام بعمل سلبي يقع ضرره على الموهوب له .

وهنا نسأل الدكتور : إذا أتلّف التلميذ المحروم صور الموهوب له ، أو آذاه بنوع آخر ، هل يعتبره بريئاً ، لأنّه قام بإضرار الغير بتأثير غريزته المتأصلة فيه ، ولا حيلة له في رفعها عن نفسه ؟ أم يراه مقصراً لأنّه كان باستطاعته أن يردع نفسه من إضرار الغير !!

أمّا نحن فنقول : إنّ لكلّ مجرم ظروفاً إجتماعية وطبيعية تدفعه إلى القيام بجريمته ، غير أنّه ليس بمجبر على القيام بعمله ، بل في إستطاعته أن يخالف هوى نفسه متّعظاً بالشرائع ، والأنظمة التي حدّت من حريته المطلقة ، ولذلك فهو مسئول عن جريمته .

الأنانية : هي حب الإنسان لنفسه ، ورغبته في تحقيق أمانيه (١) ، ولا يحاسب الإنسان على هذا الحب إن لم يتعد إلى العمل . وأما إذا دفعه هذا الحب إلى العمل لتحقيق مصلحته الخاصة دون الإضرار بمصالح الآخرين ، فهي غير مذمومة بل هي ممدوحة و لازمة للحياة ، ولكننا لا نسميها بالأنانية ، وإنّما

(١) من الخطأ أن نعتبر الأنانية خصلة مقابلة للشهوة ، والحسد ، وإنّما هي أعم منهما ومن غيرهما وهي أم الرذائل الخلقية . راجع قبله ص ١٥ و ١٦ .

هي النشاط المنتج . بل الأنانية أن يستهين الفرد بمصالح الآخرين في سبيل تحقيق مصلحته .

وأذكر في هذا السبيل قصة طريفة وقعت لي في طريقي إلى بغداد في يوم قاسي البرد شديده ، وكنت آنذاك مصاباً ببرد و زكام ، وكان يجالسنني في عربة القطار بدوي قوي البنية سليم المزاج ، إتخذ المقعد المواجه لي متكأ له ، و كنتا نشترك في النافذة المطلّة على البر ، فإذا فتح النافذة أصابني تيار قوي مشبع بالرطوبة - وكان التيار يمر عنه ولا يصيبه - ولما لم يقتنع بوجاهة طلبي بغلق النافذة لأنّه كان يعتقد أنّه يتصرف بحقه ، وإن سبّب لي الأذى ! ولم يكن لي مجال الانتقال في القطار المزدهم بالركاب من النساء والأطفال ، تحملت ذلك و دافعت التيار بعباءتي حتى إذا وصلت مقصدي أصبت برمّد شديد ألزمني الفراش لعدة أيام .

فهذا يا سيادة الدكتور ولا شك من الأنانية المذمومة . وأراني لو قدر لي أن أتراجع مع البدوي إليك لحكمت له باسم الغرائز البشرية ، و بدليل أنّ حياة البدوة قد عودّته على استنشاق الهواء الطلق ، و لا تثريب عليه في تنفيذه لرغبته المنبعثة عن ظروفه الخاصة . ولكني سأقول لك : إنّ البدويّ اندفع إلى إيذائي مخيراً و لم يكن مجبراً ، و مستهيناً بمصلحتي في سبيل إشباع رغبته بدافع الأنانية المحضة ، و إذا كان دافع الشهوة و الرغبة و الأنانية عذراً مشروعاً للمجرم ، إذن فلتغلق المحاكم أبوابها !!!

أما الشهوة : فهي ينبوع الحياة ، و من لم يشتهه فهو مريض غير سليم ، و الإنسان الحي السليم يشتهي الأكل و الشرب ، و يشتهي النوم و العمل الجنسي ، و فيه غيرها من الشهوات . ولكن في مقدوره أن يضبط نفسه و يغالب شهوته ، فإن لم يفعل و استرسل وراء شهواته أهلك نفسه و أضرب بالآخرين .

و الإسلام بعد أن عيّن القدر اللازم لإشباع الغرائز الإنسانية منع من الإسترسال وراء الشهوات ، كي لا يهلك الإنسان نفسه ، و يضر الآخرين ، و قد تكون الحكمة في وضع حد للإنسان ، و إداثته بالجريمة ، فيما إذا تجاوز ذلك

الحد دون الحيوان ، بعد وجود العقل الفارق بينهما ، إنّ الحيوان لا يستطيع أن يجنّد لتحقيق رغائبه ما عدا قواه الخاصة به ، فهو يستفيد من برائنه وأنيابه وقفزه وانقضاضه للحصول على فريسته ، فيكون إضراره للغير محدوداً ، وإنه ليس له طريق آخر للبقاء غير ما يقوم به ، وأمّا الإنسان فإنّه يستطيع أن يجنّد أشعة الشمس ، و ضياء القمر ، وتيار الهواء ، و جريان الماء و جميع ما يرى لتحقيق شهواته و رغباته - دون أن يضر بمصلحة الآخرين - فإذا لم تُهدّب رغبات هذا البشر فإنّه سيجنّد ما في هذا العالم لتدميره ، فلذلك كان واجب الأنبياء و المصلحين تهذيب طباعه ، و توجيهه إلى ترك الإضرار بالغير في كل ما يعمل . و من هنا ينشأ الخلاف بيننا و الدكتور ، فإنّه يأخذ برأي السوفسطائيين ، و يقول : (إنّ الحقيقة نسبية غير مطلقة و أنّ مقياس الحقيقة هو الإنسان بمصالحه ، و رغباته ، و شهواته) .

و محصّل هذا الرأي : أنّ الحق مع كل إنسان في كل ما يعمل بدافع شهواته و رغباته و مصالحه ، و على هذا فليس لنا أن نطالب إنساناً بأن يترك ما يرغب فيه ، لأنّ الحق معه فيما يعمل و إن أضرّ بغيره ، و المؤلف يدافع عن هذا الرأي فيما يكتب ، و لا ينتهي نقاشنا مع الدكتور فيما يتفرع عن هذه الفلسفة عند حدّ إن لم نناقشه في أصل هذه الفلسفة و آثارها .

إنّ هذا المنطق قد يؤدي بنا إلى هدم كل ما بنته الإنسانية من فضائل أخلاقية حتى اليوم ، فمغزاه أنّ كل شيء مباح ، و ليس لقانون في العالم أن يدين أيّ مجرم كان مهما كانت جريمته ، و كم من أوجه شبه بين هذا الرأي ، و الحكاية الطريفة التي أوردتها لك :

يحكى أنّ ملكاً ، من ملوك إيران الأكاسرة ، مرّ في طريقه إلى الصيد على قرية آمنة مطمئنة ، و لما لم يؤد أهلها واجب الخضوع كما ينبغي للملك ، رمق الملك وزيره و قال : (لتهدم) . فأسرع الوزير إلى تنفيذ أمر مولاه ، و دخل القرية ، و جمع رجالها البسطاء حوله فخاطبهم و قال : يا رجال القرية إنّ الملك قد أعجب بنشاطكم البارز في تعمير هذه القرية ، و رغبت بمكافئة جميعكم على هذا

النشاط ، فمنح جميع رجال القرية لقب (كد خدا) أي (رئيس قرية) . قال هذا وكرّر راجعاً إلى موكب الملك ، وعندما مرّ الملك على نفس القرية في السنة القادمة وجدها خرائب ، وأطلاقاً ، فسأل وزيره عنها - وكان قد نسي أمره - ولما ذكره الوزير بما أمر في حقهم سابقاً رقّ عليهم الملك ، وأمر بتعميرها ، فذهب الوزير إلى القرية ودخلها مرة ثانية ، فلم يجد من سكانها سوى الشيوخ ، والعجزة الذين أقعدتهم الشيخوخة عن الفرار ، فتوجّه إلى أكثرهم جلدأً ، وخاطبه سائلاً : ماذا دهاكم ؟ وما حلّ بقريتكم ؟ فتأوه القروي وقال : هذا ما جرّه علينا وزير أبله مرّ علينا قبل سنة ، وأنعم على جميع رجال القرية وسام الرئاسة ، فلم يكذب يخرج من القرية إلا وقد غلب على الجميع حب السيطرة ، فكلّ يريد أن ينفذ أوامره لا زال البقية لا يخضعون له ، فسالت الدماء ، وهدّمت البيوت ، وقطعت الأشجار ، وآل أمر الباقين من سكان القرية إلى الفرار .

أبدى الوزير تأسّفه من ذلك ، وأعطاه مالاّ جزيلاً ليصرفه علىّ تعمير القرية ، وقال له : إنّ الملك قد عينك أميراً علىّ هذه القرية ، ورجع عنه من حيث أتى .

والأّ ينتهي بنا المصير إلىّ مثل هذه القرية ، إذا قلنا للبشر جميعكم أنّكم علىّ حق فيما تقولون و تفعلون !!

السفسطة و تاريخها

لقد وجدنا الدكتور الوردي ينقل تاريخ السفسطة ، و تاريخ خصومها مشوّهاً ، و يهاجم أرسطو ، و منطقّه ، و أستاذه إفلاطون ، و ينسب إليهم ما هم براء عنه ، و ذلك في سبيل الدعوة إلىّ السفسطة .

و يقول في كتابه و عاّظ السلاطين ص ١٥ : (إنّي أكاد أجزم بأنّ منطق الوعظ الإفلاطوني هو منطق المترفين و الظلمة) . و يقول في كتابه خوارق اللاّشعور ص ٨٩ : (لقد كان فلاسفة الإغريق من أصحاب العبيد ، فكانوا غير

مضطرين على التفكير في معاشتهم ، أو في كيفية الحصول على رزقهم ، فكان كل فيلسوف منهم يملك عدداً من العبيد يعملون له ، و يكدحون في سبيل الحصول على ما يحتاج إليه ، و لعلّ هذا كان من جملة العوامل التي أدت إلى إنتشار منطق أرسطو بين فلاسفة الإغريق) .

فلو كان العبيد يملكون من الوقت ما يفكرون به كما يفكر أسيادهم ، لربما رأيناهم يبتكرون منطقاً خاصاً بهم معاكساً لمنطق أسيادهم ، و لنا أن نقول في هذا الصدد بأنّ منطق السفسطة كان أقرب إلى فهم الحياة الواقعية من منطق أرسطو ، و لعله كان منطق العمال و العبيد ، و ربما كان ذلك سبب إندحاره .

لقد كره المفكرون القدماء منطق السفسطة ، لأنّه ينزل بهم من أبراجهم العاجية . إنهم يريدون أن يصعّروا خدودهم للناس ، و يتباهون بما لديهم من أفكار و إصطلاحات لا يفهمها العامي و السوقي ، و لذا نراهم حاربوا السفسطة محاربة لا هوادة فيها ، و قد سار الفلاسفة المسلمون في القرون الوسطى على نفس الوتيرة . إنّ هؤلاء الفلاسفة لم يكونوا من أصحاب العبيد ، كما كان زملاؤهم الإغريق ، و لكنهم أحبوا منطق أرسطو بتأثير من الجو الفكري الذي كانوا يعيشون فيه ، فهم قد كانوا يكتبون في الغالب للأمرأ و السلاطين ، و يرجون منهم الجوائز ، فأصبحوا بذلك يفكرون حسب منطق أصحاب العبيد من حيث لا يشعرون .

و يقول في ص ٨٦ منه : (و مشكلة المشاكل في منطق أرسطو أنّه لا يمثل واقع الحياة ، فمن الممكن أن نسميه بمنطق البرج العاجي ، و قد تتضح هذه التسمية إذا درسنا تاريخ هذا المنطق و ألمنا بطروفه الفكرية و الإجتماعية التي أحاطت بنشأته الأولى) ، إنتهى ما أردنا نقله .

و يتلخّص رأي الدكتور : أنّ منطق أرسطو كان منطق أصحاب العبيد ، و أنّ السفسطة منطق العمال و العبيد ، و بما أنّ فلاسفة الإغريق كانوا من أصحاب العبيد حاربوا السفسطة بلا هوادة ، و أنّ فلاسفة المسلمين لمّا كانوا يكتبون للسلاطين تابعوا فلاسفة الإغريق في ذلك ، و للتدليل على صحة إستنتاجه يذكر تاريخ السفسطة ، و منطق أرسطو مبتوراً ، ثم يبدي أسفه في ص ٨٧ على إندحار

الفسفة ، و يقول : (و لعلنا لا نغالي إذا قلنا بأن إنتصار منطق أرسطو ، و اندحار الفسفة كان من سوء حظ البشرية) .

و إن مثل الدكتور في مغالطته ، و نقله تاريخ الفسفة ، و منطق أرسطو مبتوراً و مقلوباً ، كمثل الدر ويش الذي كان يترك الصلاة و يقول : إن الله قد ذم المصلين حين قال : « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ » ، فكان يستشهد بهذه الآية ، و يترك ذكر البقية التي تنافي غرضه ، و التي هي « الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤْنَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .^(١)

و لا بد لنا ، في تمحيص هذا الإستنتاج المغلوط ، من نقل مدخّص الفسفة ، و نبذة من تراجم من حاربوها من فلاسفة الإغريق ، لنرى هل كان إندحار الفسفة من سوء حظ البشرية أم من حسن حظها ؟!

الفسفة و أساتذتها و طلابها و تاريخهم

بعد أن دحرت أثينا الفرس ، و حفظت لليونان إستقلالها السياسي و الفكري ، جدّ اليونانيون في توسيع الحضارة و الثقافة ، فنبغ فيهم العلماء ، و الأطباء ، و أهل الفن ، و سائر أصحاب المهن ، و قويت عندهم الديمقراطية ، و تنامي التنافس بين الأفراد ، و شاع الجدل القضائي و السياسي ، و ازدادت حاجتهم إلى الترافع أمام المحاكم ، و المجالس الشعبية لازدياد أسباب الخلاف بينهم ، و احتاجوا إلى تعلّم الخطابة ، و أساليب المحاجة ، فلاحظ جماعة من المثقفين أنّ المجال واسع أمامهم لاستغلال مواهبهم في الحصول على الربح المادي ، فانقلبوا إلى معلمي البيان و الجدل . و هؤلاء هم الفسفاثيون الذين ملأوا النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد .

تخرّج السوفسفاثيون من مختلف المدارس الفلسفية ، و بذلوا كل الجهد

(١) الماعون : ٤ - ٧ .

لتعلم المغالطة و الجدل ، و أما سائر العلوم ، فكانوا يأخذون منها على قدر ما يساعدهم على إستنباط الحجج و المغالطات ، و على التظاهر بالعلم ، و أخذوا يتاجرون بتعليم الناس الجدل و المغالطة ، و يفاخرون بتأييد القول الواحد و نقيضه على السواء !!

و تطرق عبثهم إلى المبادئ الخلقية و الإجتماعية ، فهزوا من العقل و إرشاده ، و جادلوا في الحق و الباطل ، و الخير و الشر ، و العدل و الظلم ، و أنكروا أن تكون هذه عاماً و ذاتياً ، و إنما قالوا : أن الحق مع كل واحد في كل ما يشتهي و كل ما يدّعي ، و أن الحق يتغير بتغير الأوقات للشخص الواحد ، فيمتنع الخطأ لأيّ إنسان في أيّ وقت كان . فإذا قال إنسان اليوم شيئاً و أنكره بعد غد ، فهو صادق و مصيب في كلا اليومين ، و كلتا الحالتين ، و قد أذاعوا التشكك في الدين ، و سخرُوا من شعائره ، و مجدّوا القوة و الغلبة ، و ذهبوا إلى أن كل ما في الكون وهمّ ، أو خيال . فقد قال غورغياس ^(١) : لا يوجد شيء في العالم ، و إذا كان في العالم شيء ، فالإنسان قاصر عن فهمه ^(٢) ، و إذا فرضنا أن إنساناً قد فهم شيئاً و أدركه ، فلن يستطيع أن يفهم غيره ، و احتجّ ببعض الأدلة الجدلية برهاناً على صحة قوله .

طلاب السوفسطائيين و دروسهم

كان السوفسطائيون ينتقلون بين المدن في طلب الشباب الثري ، الذي يتقاضون منه الأجور الوفيرة ، و يعلمونه الجدل و المغالطة ، و كان الشباب الثري يهرع إليهم ليتقوى بالعلم فوق ما توفر له من أسباب الغلبة ، من الجاه و المال

(١) كان غورغياس من كبار السوفسطائيين . ولد سنة ٤٨٥ ق.م ، و عمره أكثر من مائة ، و مات سنة ٣٧٥ ق.م ، بعد أن عظم صيته ، و ضخمت ثروته على حساب الإتجار بتعليم الجدل .
(٢) ينسب الوردى إلى هيجل في ص ١٠٠ من خوارقه شبيه هذا الرأي .

محاورة بين سوفسطائي و تلميذه

يقال أن أستاذاً سوفسطائياً إتَّفَق مع تلميذه الشاب الثري على أن يعلمه من الجدل في البيان ما يمكنه من أن يجعل الحقّ باطلاً و الباطل حقّاً ، فيعطيه التلميذ على تعلّمه ما الأّ جزيلاً ، و لما أتمّ الأستاذ السوفسطائي تعليمه ، و طالب بحقه من الأجرة ، قال له التلميذ :

أحقّ ما تطالبه ؟

الأستاذ السوفسطائي : نعم ، إنّه يحقّ لي الأجر لأنّي قد علّمتك ما إتَّفقتنا

عليه !

التلميذ : لقد اتَّفقتنا على الأجر على أن تبلغني من القدرة على الجدل درجة أستطيع معها أن أجعل الحقّ باطلاً و الباطل حقّاً ، و الآن فإن كان حقاً ما تطالبه و لم أستطع من إبطال هذا الحقّ بالجدل ، فلا تستحق شيئاً ، و إن لم أبلغ تلك الدرجة فماذا تطالبنني ؟

الأستاذ : إنك قد استطعت الآن أن تجعل الحقّ باطلاً ، و لذلك فأنا أستحق

الأجر !

كان السوفسطائيون يبحثون عن أثرياء الشباب ، و يعلمونهم الجدل و المغالطة أزاء أجور كانوا يتقاضونها منهم ، و إليك نموذجاً من محاضرات السوفسطائيين على تلاميذهم من الشبان :

إنّ الطبيعة الإنسانية شهوة و هوى ، و قد وضع المشرّعون القوانين لقهر

(١) مصدر هذا البحث ، إلى هنا ، كتاب تاريخ الفلسفة ليوسف كرم ص ٤٥ إلى ص ٤٧ ،

و محاورة تيتياتوس لإفلاطون .

الطبيعة ، و أنّ القوانين متغيرة بتغير العرف ^(١) و الظروف ، فهي نسبية غير واجبة الاحترام لذاتها ، و من حق الرجل القوي ، بالعصية أو بالمال أو بالبأس أو بالدهاء أو بالجدل ، أن يستخفّ بها أو ينسخها ، و يجري مع هوى الطبيعة ، كما أنّ القانون الخلقي ، الذي تهابه الناس و تخشاه ، ليس من وضع الطبيعة ، بل الناس قد وضعته ^(٢) ، و إنّما الطبيعة تعارضه و تأباه ، فبحسب الطبيعة ، الأمر الأخسر هو الأقبح ، و المتحمّل للظلم هو الأخسر ، و بحسب القانون الخلقي ، الذي وضعته الناس ، إنّ ارتكاب الظلم هو الأقبح ، و منشأ هذا الاختلاف بين الواقع و القانون ، أنّ القانون قد وضعه الضعفاء نظراً إلى مصلحتهم الخاصة ، و هم يقصدون بذلك تخويف الأقوياء و صدّهم عن التفوّق عليهم ، و أنّ الضعفاء يرون أنّ الظلم ينشأ من إرادة القوي التسامي على الآخرين ، و لكن الطبيعة تقدم الدليل على أنّ العدالة الصحيحة بأن يتفوق الأقدار ، و ترينا أنّ هذا هو الواقع في الإنسان و الحيوان و في كل مكان ، و ترينا أنّ علامة السعادة سيادة القوي على الضعيف ، و إذعان الضعيف لهذه السيادة ^(٣) ، هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى أنّ الكل يطلب السعادة فكيف يستطيع أن يعيش سعيداً من يخضع لشيء ؟ أيّاً ما كان ، إنساناً كان أو قانوناً . ألا و إنّ العدالة و الفضيلة و السعادة ، بحسب الطبيعة ، أن يتعهد الإنسان في نفسه أقوى الشهوات ، ثم يستخدم ذكائه و شجاعته لإرضائها ، مهما تبلغ من قوة ، مع تظاهره بالصلاح لإسكات العامة و الإنتفاع بحسن الصيت ، و لا يتسنى هذا لغير الرجل القوي ، لذا ترى أنّ العامة تعنّف الذين تعجز عن مجاراتهم ، لتخفي بهذا التعنيف ضعفها و خجلها من هذا الضعف ، و تعلن أنّ الإسراف عيب ، و هي تحاول أن تقيّد بذلك من ميزته الطبيعية من الرجال و تستعبده ، و تشيد الضعفاء بالعفة ، لقصورها عن إرضاء شهواتها الإرضاء التام ،

(١ ، ٢) لعلّ الدكتور الوردى يغرف من هذا البحر في كتابه خوارق اللاشعور ، و وعظ

السلطين ، حين يتكلم عن (الإطار الفكري) ، و (العرف الإجتماعي و قيمه) .

(٣) هذا المنطق منطوق الحيوان في الغاب .

و تمجّد العدالة لجينها و قعودها عن عظام الأمور ، و لو صحّ ما تقوله العامة من أبناء الفقراء من أنّ السعادة في الخلو من الحاجات و الرغائب ، لوجب أن ندعوا الأحجار و الأموات سعداء .

هذه دعاوى السوفسطائيين^(١) ، و هذا هو منطقهم ، فانظر إلى الوردي كيف يقلب الحقائق حين يصف هذا المنطق (بمنطق العمال و العبيد) و يقول عنه : (ربما كان ذلك سبب إندحاره^(٢)) .

و لست أدري هل كان الدكتور يعرف السفسطة ، و كتب ذلك مغالطاً ليخدع الأكثرية - الفقراء و العمال - و يجلبهم إليه أم كان لا يعلم؟! فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ، و إن كنت تدري فالمصيبة أعظم . و لا أدري أيّ قوله أصحّ؟ أهذا القول؟ أم قوله من بعده؟ (لقد كره المفكرون القدماء منطق السفسطة ، لأنّه ينزل بهم من أبراجهم العاجية . إنهم يريدون أن يصعّروا خدهم للناس ، و يتباهون بما لديهم من أفكار و اصطلاحات لا يفهمها العامي و السوقي ، و لذا نراهم حاربوا السفسطة محاربة لا هوادة فيها) . فمن هم الذين حاربوا السفسطة محاربة لا هوادة فيها؟ إنّه سقراط و تلاميذه و مريدوه .

سقراط شهيد الفكر و الحق و العدل

انتشرت السفسطة في بلاد اليونان ، و أفسدت أخلاق الشباب المترف ، فنهض من بين الطبقة العاملة سقراط الحكيم ، الذي كان عاملاً نحاتاً كأبيه ، آتاه الله الحكمة و فصل الخطاب ، فبذل جهده في مكافحة السوفسطائيين ، في آرائهم

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية ليويسف كرم من ص ٤٥ إلى ٩٤ .

(٢) خوارق اللاشعور ص ٩٥ .

وأعمالهم ، فبينما هم يعلّمون أبناء الأثرياء بأجور وفيرة ، أخذ هذا يتجول في كل مكان ، و يبذل الحكمة بلا ثمن ، يوجّه السؤال إلى الشعراء و السوفسطائيين ، و من يدّعي العلم في الأزقة و الحوانيت ، و يجعلهم سخريّة لأبناء الشعب ، و يسحر الجميع بإسلوبه البسيط البليغ ، و يؤثّر محادثة الشباب في مجاوراته ، ليرشدهم إلى الحق و العدل و الخير ، و يهيء للبلاد مستقبلاً طيباً ، معتقداً بأنّ الله قد أقامه مؤدّباً بالمجان للعموم . يرتضي الفقر ، و يرغب عن متاع الدنيا ، و كان إلى ذلك مواطناً صالحاً ، و جندياً باسلاً ، إشتراك في حربيين ، و أبلئ فيهما بلاءً حسناً ، و أصابته القرعة فدخل مجلس الشيوخ و عرف هناك بالنزاهة . و لقد كان لسقراط مواقف مشهورة ، جهر فيها بالحق و العدل ، مستهدفاً للخطر صامداً للهيّاج ، و لما ضاق صدر خصومه من جرّأته ، اتهموه بإنكاره لآلهة المدينة ، و إفساده الشباب ، فقابل الحكام بجرأة لم يرتضوها منه ، ولم يطلب منهم الرأفة و الرحمة ، فأدين ، و حكم عليه بالإعدام ، و لما كان العرف يعذر الفار في تلك الحال ، هيّأ له مريدوه وسائل الفرار ، فأبى أن يهرب و يخرج على القوانين التي هي سياج الدولة ، في ظلّها يحيا الفرد و يعيش ، فإن كان الاثينيون قد ظلّموه ، فبأي حق يستهين هو بالقوانين و يظلمها ، و أنّه لن يفعل ذلك ، بل يوافق على تنفيذ الحكم عليه ، مهما كان قاسياً ، فهيّأ له السجّان كأس السم ، و تناولها سقراط بيديه ، و شربها حتى الثمالة ، و لفظ أنفاسه هادئاً مرتاح الضمير .

ذلك هو خصم السوفسطائيين الألد ، فهل كان هذا (يصعّر خده للناس ، و يتباهى بما لديه من أفكار و إصطلاحات لا يفهمها العامي و السوقي ، و لذلك حارب السفسطة محاربة لا هوادهة فيها) كما زعم الدكتور ؟! إنّ المؤلف يناقض نفسه بنفسه في هذا الفصل ، و كذلك شأنه في أغلب ما كتب ! .

تلاميذ سقراط : الكليبيون و افلاطون و أرسطو

إنقسم تلاميذ سقراط من بعده إلى شطرين ، قسم أراد أن يترسّم خطاه في

التهديب العملي ، و أولئك هم الكليون الذين حادوا عن القصد ، فعافوا الدنيا و لذائذها ، و قسم اتبعوه في نشر العلم و الحكمة ، و زعيم هؤلاء افلاطون ، و تلميذه أرسطو . أما افلاطون فإنه ثابر في مكافحة السوفسطائيين ، لا بين النوادي الشعبية فحسب ، كما كان يفعل سقراط ، وإنما على صفحات الكتب و بلسان أبطال محاوراته . و قد سيم الهوان و بيع كالعبيد ، و لكن ذلك لم يغير منه شيئاً فلم يخضع للسلطان ، و لم يقبل الجاه مدة حياته .

و من بعده قام أرسطو ، فهذب المنطق ، و شيّد بنيانه على ما أسسه سقراط . هذه هي السفسطة و تاريخها ، و الدكتور الوردى يروج هذه الفلسفة حين يقول ما مؤداه و ملخصه : (لَمَّا كان الحق مع كلِّ إنسان في تحقيقه لرغبته و شهوته و مصلحته ، فما يفعله كل إنسان حق و عدل و خير بالنسبة إلى ذلك الإنسان ، و إن كان شراً و ظلماً و باطلاً بالنسبة إلى غيره . إذن فالحق نسبي بتعدد الأشخاص . و من يدعوك إلى الحق المطلق و العدل المطلق ، إنما يحاول أن يغشك و يخدعك (١) !

و على ضوء هذا المنطق - منطق السفسطة - يكون الإنسان كالحيوان . فكما أنّ الذئب ليس بظالم ، و الغنم مظلوماً ، بل الحق مع الذئب في اقتراسه الغنم ، و الغنم أيضاً محق في فراره عن الذئب ، لأنّ كلاّ منهما يجري وراء شهوته و مصلحته ، كذلك الأمر في الإنسان . و ذلك لاختلاف شهوات الناس ، و تعدّد مصالحهم . فالحق مع كل إنسان في كل ما يفعل . و على هذا فالحق مع الدكتور حين يرى : (أنّ طلب الوعّاظ من الناس أن يتركوا الحسد و الشهوة و الأنانية نفاق (٢)) !

و أما نحن فنؤمن بوجود حق مطلق ، و عدل مطلق ، يقاس عليه جميع

(١) راجع خوارق اللّاشعور للدكتور الوردى ص ٥٧ و ٥٨ و ٦٨ و ٧٣ و ٨٦ .

(٢) راجع وعّاظ السلاطين ص ٦ ، ٨ .

أعمال البشر ، فما هو ذلك الحق المطلق والخير المحض ؟
إنّ الدكتور - تبعاً لأساتذته السوفسطائيين - يجمع بين مصلحة الإنسان وشهوته ورغبته في الذكر ، ليريك أنّ الحق مع كل إنسان في تنفيذه لرغبته وتحقيق شهوته ومصلحته ، فإن لم تقبل برأيه إتهمك بأنك تزعم أن ليس للإنسان الحق في السعي وراء مصلحته ، ومن هنا ينشأ الخطأ ، ويبدأ بالمغالطة ، ويبنى على هذا الأساس جميع أحكامه الجائرة .

الحق ما ينفع الإنسان لا ما يشتهي

و نحن نقول أنّ الحق مع كل إنسان فيما ينفعه ، لا فيما يشتهي ، فكثيراً ما تصطدم مصالح الإنسان ومنافعه بشهواته ورغباته ، فقد يشتهي المريض ما يضرّه من المأكول والمشروب ، ولا يشتهي الدواء المر . أمن الحق عند ذاك أن نعطيه ما يشتهي وإن أضرّه ؟ وأن نترك ما لا يرغب فيه وإن نفعه ؟ لا ، وإنما الواقع والحق أن نقدّم صلاحه ونفعه على رغبته وشهوته . ومن هنا نعلم أن ليس من الحق تحقيق شهوته ورغبته دائماً ، بل من الواقع أنّ حقّ الإنسان قد يصطدم بشهوته ورغبته أحياناً ، وليس ذلك خاصاً بالمريض ، بل الأمر في الإنسان السالم أيضاً كذلك ، فإنّ الإنسان السالم أيضاً قد يشتهي ما يضرّه ولا ينفعه ، فكثيراً ما يشتهي الإنسان السالم أن يأكل حتى يتخم ، وكثير من البشر يشتهون العمل الجنسي إلى حد الإفراط المضر ، والمخالف لنفعهم ومصلحتهم ، ولا يظن أحد أنّ من الممكن إشباع الإنسان في شهواته ورغباته ، لأنّ الإنسان إذا جرى وراء الشهوات يخرج هذا حتماً عن حد الاعتدال ، ويكون مصيره عند ذاك مصير المنحدر عن الجبل بسرعة فائقة ، ظناً منه أنه يستطيع الوقوف في أثناء الانحدار متى ما أراد الوقوف . كلا ، فإنّ مصيره الهوي إلى الحضيض ، والمنجرف وراء شهواته يهوي ويهوي إلى ما لا نهاية له حتى يدركه الموت .
و أنّ الإستسلام للشهوة هو بنفسه مرض مهلك للإنسان . وإذا لاحظنا

الغريزة الجنسية في الإنسان وجدنا الشخص إن لم يقف عند حد النفع فيها قد لا يكفيه من الجنس الآخر أي عدد، مهما ارتفع العدد، كما كان الأمر في بعض السلاطين سابقاً، وبعض المومسات دائماً، فإذا ثبت أن الشهوة والرغبة قد تخالف المنفعة والمصلحة، فلنجعل المصلحة أو بتعبير أصح منفعة الإنسان مقياساً للحقيقة، ونقول أن الحق مع كل إنسان في السعي وراء منافعه.

ما ينفع من الأكل والشرب والنوم واللباس والعمل الجنسي، وهكذا له الحق في السعي وراء كل ما ينفعه من الثقافة والعدالة إلى غير ذلك، وأما إذا أراد أن يأخذ أكثر مما ينفعه، فهو خلاف، الحق لأتته حينئذ يضر نفسه قبل أن يضر غيره، ولا يزعم أحد أن منفعة إنسان ما قد تصطدم مع منافع الآخرين، لقلّة مواد الإنتاج وموارده عن حدّ الكفاية، أو عن الحدّ الذي ينفع البشر، كلاً، لا يزعمن ذلك أحد، ولنعم ما قاله فيلسوف الإنكليز الساخر برناردشو: العالم كشعر رأسي ولحيتي، ووفرة في الإنتاج وسوء في التوزيع^(١). إن السبب فيما نرى من سغب البعض هو بطر الآخرين، وأن احتكار جماعات من الرأسماليين في العالم لمواد الإنتاج أكثر ممّا ينفعهم - بدافع الشهوة الرذيلة - أضرّ الآخرين، ولو لا ذلك لما رأينا جوعاً ولا فقراً ولا ضرراً ولا حرباً ضرراً بين الدول. فإنّ في العالم، من مصادر الإنتاج النافعة للإنسان والضرورة له، ما إن استخرج استخراجاً صحيحاً ووزّع توزيعاً عادلاً لكفى جميع البشر فيما يشتهون، إلى الحد الذي ينفعهم - وكلما كثر عددهم تضاعف الإنتاج وكلما قلّ قل - وفي ملاحظة حالة أهالي بعض البلاد الإسكندنافية وسويسرا، من البلاد التي ليست بمستعمرة (بالكسر) ولا بمستعمرة (بالفتح)، وما نجد لديهم من أمن ورفاه وسعادة أكثر من البلاد المستعمرة والمستعمرة، لخير دليل على ما نقول، فليست منفعة إنسان ما بمزاحمة منفعة غيره قطعاً، وإنما التي تتعارض هي الشهوات الضارة وحدها، لأنّ الشهوات - كما ذكرنا - لا حد لها، وإن أصرت على القول بأنّ من الممكن أن

(١) إن برناردشو كان أصلع ككّ اللحية.

ينفع إنساناً ما يضر غيره، فنقول إنّ الضار ليس بنافع، وذلك لأنّ منافع المجموعة الإنسانية كتلة مرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً كلياً وثيقاً، وهي وحدة غير قابلة للتجزئة، كارتباط منافع الجسد الواحد بعضها مع بعض و وحدتها، وإنّ ما يضر العين لا ينفع اليد، وكذلك العكس. فإياها الإنسان لا ينفعك ما يضر أخاك، لأنّ الشقاء والسعادة والعلم والجهل والمرض تسري من إنسان إلى آخر سريان الكهرباء في الأسلاك، فإذا مرض إنسان يعديك، وإن جهل يؤذيك، وهكذا. ولن تبقى في الكتلة الصلبة من الفلز برودة نصفها تحت الصفر و حرارة النصف الآخر فوق المائة. فإن لم تدرك العلاقة بين ضررك و ضرر الآخرين، و لا يسعنا المجال ها هنا للبرهنة على هذه العلاقة القوية بينهما، و التي هي غير قابلة الإنفكاك. و أبيت إلا أن تجعل منفعتك الخاصة مقياساً للحقّ فقط. فنقول أيضاً: لا ينفعك ما ضرّ أخاك، و ذلك: أولاً: لأنّ ما تحصّله من منافع هي ثمرة جهودك و أتعابك، و أنت تبدّد جهودك في مكافحة الآخرين، فلا تنتفع عند ذاك إلا من بعض جهودك، فافحص عن طريق آخر لجلب نفعك مما لا ضرر فيه لغيرك، و حتماً أنت واجده إن أنعمت الفحص، و ثانياً: إنّ الإنسان لا يستطيع الحياة الفردية في الغاب، بل هو محتاج إلى الحياة الاجتماعية في المدن، و لا يمكن الحياة الاجتماعية في المدن ما لم تترك أنت ما ينفعك لأنّه يضرّ غيرك، و يترك غيرك ما ينفعه لأنّه يضرّك، و ليس هذا من باب ترك النافع على حساب الغير، و إنّما هو من باب بذل النافع في سبيل تحصيل الأتفع، و هذا هو عمل الإنسان في جميع أعماله، إن لم يكن مصاباً بقصر النظر، فالزراع يبذل البذر لتحصيل الزرع الأتفع، وهكذا.

فما يحصل للإنسان في ظلّ المدينة، من منافع إنتاج غيره الغزير الوفير من منتوجات أهل الحرف و غيرهم، مما لا تُعدّ و لا تُحصى، كيف يحصل عليها الإنسان إن لم يترك كل ما يضرّ غيره و إن نفعه؟! و ليس الأمر هكذا مع الحيوان، فإنّه يستطيع أن يعيش في الغابات و الكهوف، و يحيا الحياة الفردية، و لا تفيدهِ فعاليات غيره من سائر الحيوانات، فعلى الحيوان، يصدق أنّه (يحمل معه

حقيقته الخاصة كما يحمل أحدنا حقيقته) ، لا على الإنسان كما زعم الدكتور ذلك في ص ٥٧ من خوارقه .

النفع مقياس للفضيلة

وكما أنّ النفع مقياس للحق كذلك النفع مقياس للفضيلة ، فالناس يتفاضلون على قدر نفعهم للإنسانية ، فالأنفع منهم هو الأفضل ، ولا فضل لمن لا ينفع ، ولا خير فيما لا ينفع .

وأخطّ الناس درجة الأناي ، الذي يجلب النفع لنفسه مع الإضرار بالغير ، فهو والحيوان سواء .

و فوقه منزلة من لا يههم إلا نفسه ، يجلب لها النفع على أن لا يضرّ بغيره ، ومن هذه الطبقة يتشكّل أكثرية البشر .

وأرفع منهم درجة من يهتم بجلب النفع لنفسه و لغيره ، و يأتي الغيري ، الذي ينكر ذاته في أعلى درجات الكمال الإنساني ، و هؤلاء هم المصلحون و الأنبياء الذين يحبّون النفع العام كما يحب أحدنا نفعه الخاص .

و خارج عن تعداد الإنسان ما قد يصادفنا من أشخاص يأنسون من إيذاء الغير فهؤلاء أضّرّ من الحشرات المؤذية ، و أكثر شرّاً ، و يجب إعدامهم إن لم يمكن إصلاحهم .

و أخيراً فإنّ النفع ميزانُ حق ، نزن به كافة الأشياء بلا إستثناء ، فإذا سلنا : أيّ كتاب أحسن ؟ و أيّ نظام أفضل ؟ أيّ المتخاصمين أحق ؟ علي (ع) أم معاوية ؟ يكون الجواب أبداً و دائماً : الأنفع هو الأحسن ، و الأنفع هو الأفضل ، و الأنفع هو الأحق ، « و أمّا ما ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرضِ »^(١) .

(١) الرعد : ١٧ .

أرسطو و منطقته

دفعاً لمغالطات السوفسطائيين في الإحتجاج ، وضع سقراط أساس المنطق و أتّمه أرسطو ، و قد اكتشفاه من أساليب محاورات الإنسان في كل مكان و كل زمان ، كما اكتشف الخليل بن أحمد أوزان الشعر من نظم الشعراء ، و من بعد ذلك أخذ الأدباء يزنون الاشعار بالبحور التي وضعها الخليل بن أحمد ، كلّما إحتاجوا البرهنة على سلامة نَظْم أو فساده . فإن صحّ القول بأنّ الشعراء أخذوا الاوزان من الخليل يصحّ ما قاله الدكتور في ص ٨٥ من خوارقه : (و قد تغلغل هذا المنطق في أعماق عقولنا بحيث أُمسينا متأثرين به لا شعورياً . فكثير منا لم يدرس قواعد المنطق في حياته ، و لكنه مع ذلك يجري في تفكيره على نفس النمط الذي يقتضيه منطق أرسطو طاليس . و هذا ناتج من تأثير الجو الفكري العام على أذهاننا ، فنحن منذ طفولتنا نسمع الكبار يتجادلون و يكتبون و يخطبون على و تيرة معيّنة ، فتنتبع هذه الوتيرة في عقولنا الباطنة ، و نبقي متأثرين بها طول حياتنا من حيث نشعر و من حيث لانشعر) .. الخ .

و نحن نقول : و كثير من الشعراء لم يدرسوا العروض ، و لكنّهم جروا في أشعارهم وفقاً للبحور التي وضعها الخليل ، غير أنّ هؤلاء الشعراء فعلوا ذلك من قبل أن يولد الخليل ، فما رأيك فيهم ؟

إنّ الاستنتاج الفكري وفق القياس المنطقي فطري عند البشر أينما كانوا ، و متى ما أرادو البرهنة على صحة رأي أو فساده . فإذا فقد صديق لك نقوده ، و أخذ يفحص عنها ، و أنت تعلم موضعها ، فقد تقول له : ألم تضع نقودك في الحافظة ، ثم وضعت الحافظة في الصندوق ، إذن فإنّ نقودك في الصندوق . و إنّ الإنسان خاضع في جميع أعماله لهذا الإستنتاج الفكري بلا إنتباه ، فإنّك عندما تطفئ نار السيجارة كلما اقتربت من البترول يمرّ في خاطرك سلسلة من القياسات كلمح البصر ، مثل : أنّ هذه النار موقدة ، و كلّ نار موقدة ملهبة للبترول ، فهذه ملهبة للبترول ، و إنّ البترول الملهبة محرقة للإنسان ، و هكذا . و بحكم هذا

الإستنتاج المنطقي السريع تطفىء نارك، غير أنّ الإنسان، في الأغلب، لا يحتاج إلى ميزان فيما يفكر لنفسه، وإنّما يحتاج الميزان عند تبادل التفكير مع الغير، كما أنّه، في الأكثر، لا يحتاج إلى الكيل في طعام يأخذه لنفسه ممّا يملك، وإنّما يحتاج إلى الكيل في تبادل البضائع مع الغير.

وقد غالط الدكتور قرّاءه في كتابه خوارق اللاشعور ص ٩٤ حيث جاء بما يشابه الأقيسة المنطقية ليدحض بها أرسطو ومنطقه وهي:

(الضحك من غير سبب من قلة الأدب).

(و فلان قد ضحك من غير سبب).

(إنّ فلان إذن قليل الأدب).

ثم يذكر:

(قليل الأدب مضرّ بالدين).

(وكلّ مضرّ بالدين يجب محاربتّه).

(و فلان إذن يجب محاربتّه).

وفي ص ١١٤ منه:

(إنّ فلان ^(١) نجح في هذا المشروع).

(ولما كنت أنا أصلح من فلان).

(فإنّي سوف أنجح فيه حتماً ^(٢)).

وهو يقصد، من ذكر هذه الجمل عن لسان أبطال روايته، أن يفهم القراء أنّ القياسات المنطقية من هذا القبيل تافهة لا قيمة لها في إرشاد الفكر. ونحن نقول أنّ هذه الجمل ليست من القياسات المنطقية في شيء، وأنّ الدكتور في سخريّته من أرسطو، واستهزائه بمنطقه، واستشهاده بهذه الأقيسة الباطلة أمام أغلبية القراء الكرام، الذين لم يدرسوا المنطق، شبيه كل الشبه بالدرويش الذي أراد أن يسخر

(١) هكذا وردت في ص ١١٤ من خوارق اللاشعور.

(٢) وقد ذكر نظير هذا في ص ٨٠ من وعاظ السلاطين أيضاً.

من عالم كبير أمام جمهرة من الريفيين الأُميين ، حين طلب من ذلك العالم الكبير - على سبيل الامتحان - أن يكتب لهم بإصبعه : حية على تراب الأرض ، فكتب العالم هكذا : حية ، فهزّ الدرويش رأسه - علامة للإستنكار - ورسم باصبعه على الأرض شكلاً لولبياً ، ثم وجّه خطابه إلى الجمهرة المتفرجين الريفيين وقال : أيهما حية ، ما كتبه هذا ؟ أم ما كتبه أنا ؟ ، ثم قال : ألا ترون هذا المدعي للعلم كيف لا يعرف شيئاً حتى كتابة الحية ؟

أهذا من الأمانة العلمية التي يجب أن يتّصف بها كل عالم !؟

إن كل إنسان سليم الذوق يدرك بفطرته أنّ في هذه القياسات مغالطة ، كما أنّه يفهم بأن نتائجها باطلة أيضاً ، غير أنّه لا يستطيع أن يشخص موضع الخطأ منها إلا فيما إذا درس المنطق ، ووزن كلاّ منهما بالميزان المنطقي ، كما أنّ الإنسان يدرك بذوقه السليم الشعر المطبوع الموزون ، ويميّزه عن غيره ، ولكنّه لا يستطيع أن يصف العلل الموجودة في غير الموزون منه إن لم يدرس العروض . وكما أنّ تعلم العروض لا يجعل المتعلم أديباً منتجاً ، وإنّما ينشئه أديباً ناقداً ، فكذلك الأمر في المتعلم للمنطق . وأما عدم خضوع الخصم للأدلة المنطقية أحياناً فليس مرجعه قصور المنطق وقياساته ، لأنّ المنطق ليس من شأنه أن يجبر أحداً على قبول الصائب من القول ، وقد يكون الخصم ممّن « جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم »^(١) ، ونحن ، على ضوء الميزان المنطقي ، نشخص خلل أشباه القياسات التي ذكرها المؤلف ، ونشير إلى ما يناسب ذكرها ها هنا فنقول : يتكوّن القياس المنطقي من جملتين . ويشترط أولاً : أن تكون الجملتان صادقتين لتصدق النتيجة ، فلو قال أحد : هذا إنسان ، وكل إنسان لا يتنفس في الليل ، تكون النتيجة : هذا لا يتنفس في الليل ، وهو كذب وخطأ ، وسبب كذبه كذب قوله : كل إنسان لا يتنفس في الليل .

(١) قد اعترض الوردى في ص ٩٥ و ٩٦ من خوارقه بما ملخصه : أنّ كثيراً من المتناظرين يحتجون بالأقيسة المنطقية دونما تأثير في الطرف الثاني ، الذي يبقى مصرّاً على رأيه .

و ثانياً : لا يعتبر بالقضية التي أهمل فيها تعيين كمية الأفراد ، و في أشباه القياسات التي ذكرها المؤلف نجد الجملة الأولى : (الضحك من غير سبب من قلة الأدب) مهمل ، إذ لم يعين هل كل ضحك من غير سبب من قلة الأدب ؟ أم بعض الضحك بلا سبب من قلة الأدب . و كذلك الأمر في قوله : (قليل الأدب يضر بالدين) ، فإنه لم يعين أكل قليل الأدب مضر بالدين ؟ أم بعض قليل الأدب ؟ و قد صرح العلماء بأن القضية المهمل ، كهذه ، لا اعتبار بها . ثم نلاحظ أنه قد يكذب في قوله : (الضحك من غير سبب من قلة الأدب) ، فقد يكون الضحك بلا سبب من أثر المرض كالهستيريا ، فتكون النتيجة : فلان مريض ، و المريض يجب معالجته لا محاربتة . و يكذب أيضاً في قوله : (قليل الأدب مضر بالدين) ، فقد يكون قليل الأدب مضرًا بنفسه ، و لا تجب محاربة من يضر بنفسه . كما أنه يكذب في قوله : (كل مضر بالدين تجب محاربتة) ، فقد يجب إرشاده ، فتكون النتيجة أن فلاناً يجب إرشاده .

و أهم شرط في القياس المنطقي أن تتكرر كلمة واحدة في الجملتين ، و تربط إحدى الجملتين بالأخرى ، مثل تكرر كلمة الحافظة في قولنا : (نقودك في الحافظة و الحافظة في الصندوق) ، و تسمى الكلمة المتكررة بالأوسط . و في قوله : (أن فلان قد نجح في هذا المشروع) لا إرتباط بينها و بين الجملة الآتية : (ولما كنت أنا أصلح من فلان) لعدم وجود الأوسط - الكلمة المتكررة - بينهما ، فليست من القياس المنطقي بشيء ، على أنه لم يذكر : أن فلاناً لم نجح ؟ هل نجح ؟ لصلاحه ؟ أو لصلاح أبيه ؟ أو لصلاح زمانه أو مكانه ؟ و قد يكون كاذباً في زعمه بأنه أصلح من فلان ، فتأتي النتيجة باطلة ، و أن وجوه بطلان أشباه قياسات المؤلف ليست منحصرة بما ذكرنا ، وإنما اقتصرنا على ما يناسب المقام ، و لتفاهة رأيه هذا عند العلماء لم يتصد أحد لنقده ، غير أن الذي لم يدرس المنطق ، من القراء الكرام ، قد ينخدع بهذه السفسطة ، فيلزم و الحال هذه التنويه إلى مغالطاته كي لا يلتبس الأمر على أحد .

و من هذا القبيل كانت أدلة السوفسطائيين في القرن الخامس قبل الميلاد ،

حتى إذا وضع سقراط أسس المنطق ، و أتمّ أرسطو بناءه ، لم تنطل بعد ذلك أضاليلهم على أحد ، وهذا هو الباعث للدكتور على مهاجمة منطق أرسطو ، فإنه قد ذكر في خوارقه ص ٨٧ ما يلي : (كان هذا المنطق ، الذي صاغه أرسطو ، ضربة قاضية على الحركة السوفسطائية ، و نصراً ساحقاً للفلسفة التي تؤمن بالحقيقة المطلقة ، و بمقدرة العقل البشري على إكتشافها و النظر فيها ، فلقد انهزم السوفسطائيون أمامه هزيمة منكرة ، و تشتتت فلولهم ، و لم تقم لهم بعد ذلك قائمة) .

بهذا ينتهي القسم الأول من نقد آراء المؤلف ، و في القسم الثاني - إذا شاء الله إصداره - نناقش رأي المؤلف في (المنطق ذات الحدين) ، و (التناقض) ، فهو يرى تبعاً لهيجل : بأن التناقض أصيل في الكون ، فكل شيء هو و ليس هو في آن واحد ، و كل فكرة تحتوي على نقيضها في صميم تكوينها ، و يجوز أن يكون الشيء حقاً و باطلاً في نفس الوقت ^(١) .

و على ضوء هذه الفلسفة ، و ما يتفرع منها من منطق الديالكتيك ، لا يرى منافاة بين كون الإسلام حقاً في عصره الأول ، و باطلاً فيما بعده !! ^(٢) ، و لنا حديث غير قصير في نقد هيجل أولاً ، و في المادية الديالكتيكية ثانياً ، و في بحث المؤلف عن الدين الإسلامي على ضوء هذه النظرية ثالثاً . و نبحت عن سر خلود الدين الإسلامي . و أنه قد لوحظ في تشريعه الطبيعة البشرية ، و أنه صالح لعلاج المجتمع البشري ما دام الإنسان إنساناً . أما إذا استطاع العلماء أن يغيروا طبيعة الإنسان بعلمهم و فلسفتهم ، فالدين الإسلامي لا يصلح لمجتمعهم عند ذلك .

و أخيراً نصافح المؤلف و نهنيه على توفيقه في أكثر من نقطة واحدة من بحثه التاريخي ، و نخالفه في بعض آرائه أيضاً ، و لعلنا نوفق إلى نشر نقدنا لقسم من الكتب التاريخية القديمة ، فيعرف بذلك رأينا فيما كتب هو و غيره عن تاريخ

(١) راجع (٩٧ - ١٠٧) من خوارق الأشعور ، و (١٠٩ - ١١٠) من وعاظ السلاطين .

(٢) راجع وعاظ السلاطين (١٠٧) ، و ما بعدها ، و (١٦٢ - ١٦٤) .

العصور الإسلامية الأولى .

و معذرة إلى القارئ الكريم فيما إذا وجدنا - أحياناً - نخرج عن قواعد النقد المنهجي ، فإن المؤلف قد أساء كثيراً في تعبيره عن رجال خدموا الإنسانية في مجال الفكر و العلم و الإصلاح ، و نستغفر الله و نسأله التوفيق و نحمده على ما وفق .

* * *

فهرس محتويات الكتاب

٣	تمهيد.....
٤	أسلوب الدكتور الوردى ورأيه ومبدؤه
٥	الدكتور الوردى فى كتابه خوارق اللاشعور ووعاظ السلاطين
٥	رأى أستاذ علم الاجتماع فى الأخلاق
٩	موقف الإسلام من حياة البشر فى الدنيا.....
٩	موقف النبى (ص).....
١٠	موقف أوصياء النبى (ص)
١١	تأثير الحضارات الأجنبية فى المسلمين
١٢	رجوع إلى موقف أوصياء النبى (ص)
١٤	الوعاظ المادّيون
١٥	الغيرية أو الرحمة والرأفة وحب الخير فى البشر.....
١٦	الوعظ والصراع النفسى والوعظ وازدواج الشخصية
٢١	نشأة الإنحراف الجنسى
٢٦	بواعث إنتشار الشذوذ الجنسى بين المسلمين
٢٧	بداية إنتشار الشذوذ الجنسى فى نهاية القرن الثانى الهجرى
٢٨	محمد الأمين
٣٠	فى عصر المأمون
٣١	فى عصر المتوكل
٣٢	المتوكل يغرى الخلىع بالتغزّل بخادمه
٣٥	الديارات المسيحية
٣٦	دير سمالو
٣٧	دير الثعالب
٣٧	دير الجائلق
٣٨	دير مديان

٣٨	دير قوطا
٣٩	عمر الزعفران
٤٠	دير مريخنا
٤٠	دير مرمار
٤٢	دير العذارى
٤٢	دير باشهرا
٤٣	دير احويشا
٤٤	دير الطور
٤٤	دير الروم ببغداد
٤٥	دير الزندرود
٤٦	دير النخوات
٤٦	دير زرارة
٥٢	الشذوذ الجنسي في أوربا
٥٦	نتيجة البحث
٦٣	الأناثية : هي حب الإنسان لنفسه ، و رغبته في تحقيق أمانيه ،
٦٤	أما الشهوة : فهي ينبوع الحياة ، و من لم يشته فهو مريض غير سليم ،
٦٦	السفسطة و تاريخها
٦٨	السفسطة و أساتذتها و طلابها و تاريخهم
٦٩	طلاب السوفسطائيين و دروسهم
٧٠	محاورة بين سوفسطائي و تلميذه
٧٢	سقراط شهيد الفكر و الحق و العدل
٧٣	تلاميذ سقراط : الكلبيون و افلاطون و أرسطو
٧٥	الحق ما ينفع الإنسان لا ما يشتهيه
٧٨	النفع مقياس للفضيلة
٧٩	أرسطو و منطقته
٨٥	فهرس محتويات الكتاب